أميركا والكنعانيون الحمر
(تشريح أسطورة)

منير العكش

إلسعوا أول من ترونه، واستمدوا حياتكم من موته
__ أرسطوفان ، «الزنابير»، ٤٢٢ ق.م

يجب أن تكون «زنبورا» لتفهم هذا الهلع العصابي الذي أصاب أميركا مع ظهور حالات الجمرة الخبيثة، فالزنبور الأميركيWASP يختلف عن كل زنابير البراري في الشكل واللسع والتاريخ الطبيعي والعلاقة مع الجراثيم. إنه اصطلاح مؤلف من الحروف الأربعة الأولى لأربع خصال عرقية وأخلاقية استثنائية تميزت بها العترة الأرستقراطية «المختارة»، التي أطلقت «فكرة أميركا» وصنعت تاريخها. في كل الطبقات الجيولوجية لذاكرة هؤلاء الزنابير (البيض، الأنكلو- سكسون، البروتستانت) مناجم غنية بمعادن موت استثنائي، بدونه لم تكن فكرة أميركا __ فكرة استبدال شعب بشعب، وثقافة بثقافة __ ممكنة.

هناك علاقة استثنائية بين هذا التاريخ الذي يرضع منذ أكثر من أربعة قرون من نسغ الموت وبين الهلع الهستيري الذي ملأ ليل الزنابير بكوابيس «الخطيئة الأصلية» لفكرة أميركا، واكتشف في

منير العكش، كاتب سوري يقيم في واشنطن

كل ذرة من جيولوجيا الذاكرة جمرة خبيثة. ولربما كان هناك أيضا ما يشبه الاستنساخ للعقلية القيامية التي عاشها أرسطوفان في أيام سقراط، وفنّدها في مسرحية «الزنابير»، وفضح فيها على لسان بطله «كليون» جنون أثينا بالدينونة والمحاكمة والقتل بالسموم.

فجأة رأت ذاكرة الزنابير صورتها في المرآة: الامبراطور عاريا تطارده أشباح ١١٢ مليون آدم وحواء ينتمون إلى أكثر من أربعمئة شعب، كانوا يملأون «مجاهل» العالم الجديد بضحكة الحياة١ (لم يبق منهم في إحصاء ١٩٠٠ سوى ربع مليون)، وتلوح لعيني جلالته مشاهد ٩٣ حربا جرثومية شاملة٢ أتت على حياة الملايين من هذه الشعوب. هذه الإبادة الجماعية الأعظم والأطول في تاريخ الإنسانية، والتي حاول التاريخ المنتصر محو ذكراها من وجه الأرض، أيقظتها حالات «الجمرة الخبيثة» بكل أهوالها في مخيلة الزنابير التي بدأت ترى مستقبلها في صورة ضحاياها الذين أبيدوا بجراثيم الجدري في خليج ماساشوستس، أو بمبيد الأعشاب البرتقالي وغاز الخردل واليورانيوم المستنفد في كوريا وفيتنام وما بين الرصافة والجسر.

لم تعترف الولايات المتحدة أبداً بعدد الهنود الذين أبيدوا منذ بداية الغزو الأبيض الذي دشنه خوان پونس دوليون باكتشاف فلوريدا في فصح ١٥١٣، فيما كان يبحث عن «ماء الشباب» الأسطورية. إن كتبَها المدرسية لا تعترف بتاريخ لهذه «المجاهل» قبل كولومبس، فقد كانت شبه خاوية من البشر تنتظر من الإله الذي خلع عليه أوليڤر كروموبل الجنسية الانكليزية God is an Englishman أن يُهبِط فيها آدمَه ليؤنس وحشتها ويعمرها بالحياة. إن الفيلم «الوثائقي» الذي يُعرض للسياح في مستعمرة پليموث (أول مستعمرة فيما صار يعرف بنيو إنكلاند) والدليل السياحي في تمثال الحرية بنيويورك كليهما يؤكد لك أن تاريخ الإنسان في مجاهل الشمال الأميركي، لم يبدأ إلا في أواخر القرن السادس عشر. أما تلك القلة الضئيلة المشاغبة من الهنود الذين لم يتجاوز عددهم يومها المليون فقد حفروا قبورهم بأيديهم في حروب متكافئة شريفة شفافة، كانوا هم مسؤولين عن إضرام نارها وحصد أضرارها، أو إنهم «ماتوا» قضاء وقدراً بالأمراض التي حملها الأوروبيون معهم دون قصد. وتمضي الكتب المدرسية فتصف هذا الموت القدري بأنه «مأساة مشؤومة يؤسف لها»، «غير مقصودة»، «لا متعمدة»، «لم يكن تجنبها ممكنا» و«أضرار هامشية تواكب انتشار الحضارة وطريقة حياتها»، وليس لك هنا بالتالي أن تلوم، إذا أردت أن تلوم إلا القضاء والقدر. وبانتفاء النية والقصد والمسؤولية عن فناء هؤلاء «الأشقياء» يصبح الحديث عن الهولوكست الأميركي «متحاملاً»، «متهوراً»، «سلبياً»، «غير مسؤول»، و«ينبع من روح الكراهية» للحضارة و«طريقة حياتها». ألا ترى كيف أكرموا الهنود فرفعوا تمثال امرأة هندية فوق قبة الكابيتول، وجعلوه رمزا للحرية؟

الأرقام الرسمية التي لا تعترف بوجود أكثر من مليون أومليوني هندي عند وصول الإنسان الأبيض إلى العالم الجديد لا تختلف عن القول، بأن عدد اليهود في أوروبا عند وصول النازيين إلى الحكم لم يكن يتجاوز مئة ألف أو مئتي ألف يهودي، ولربما أنه سيشجع على القول مستقبلا إن فلسطين عند إعلان دولة إسرائيل لم يكن في مجاهلها أكثر من عشرة آلاف متوحش. إننا لا

نقف هنا أمام جهل بالحساب، أو غش في صفقة تجارية، بل أمام عدمٍ تتطاير أشلاء الذاكرة الإنسانية في هاويته، ومعها تتطاير فرص الحياة لكثير ممن تلدهم أمهاتهم في «المجاهل». ولأنه ليس هناك من يعرف عمق هذه الهاوية، فإن «المأساة المشؤومة» التي واكبت انتشار الحضارة في العالم الجديد تبقى مفتوحة على كل أنواع الثقافات والأعراق الإنسانية. هذا قدر أميركا Manifest Destiny ورسالتها الخالدة التي كتبت لها السماء أن ترافق أشعة الشمس حيث دارت الشمس.

إن الأرقام الحقيقية لم تتقلص بهذه الشراسة إلا لأنّ حقيقتها تعري أسطورة «الأرض العذراء» التي افترعها الزنابير، أو «الأرض الفارغة» التي نُسجت من خيوطها كل أكاذيب التاريخ الأميركي ووضعت حياة إنسانيتنا باستمرار على شفا ذلك الثقب الأسود black hole. هذا الإصرار على أن عدد الهنود لم يتجاوز المليون أو المليونين عند وصول الأوروبيين، وأنه تقلص إلى ربع مليون في عام ١٩٠٠ يحيل كل قصة الإبادة إلى فيلم تسلية، ويقدم لبهلوانيي التاريخ المنتصر اللغة الأورولية المناسبة لنشاط وزارة الحب. إن بإمكانهم ابتلاع هذه الحسكة الطرية الصغيرة، ولكن كيف سيبتلعون عظام ١١٢ مليون إنسان؟

وليس «عامل الأمراض» بأقل لؤما. هناك مئات الكتب التي وضعها التاريخ المنتصر لما أسماه بعامل الأمراض disease factor، وهناك مئات الأبحاث والدراسات التي تسخر من فكرة إبادة سكان أميركا بالأسلحة الجرثومية. فالجدري والتيفوئيد والخنّاق والحصبة وغيرها من أوبئة العالم القديم، هي التي قفزت خفية إلى سفن المستوطنين ووصلت سراً إلى شواطىء العالم الجديد، ثم تسللت إلى أرواح الهنود في قراهم ومدنهم قضاء وقدرا. أما الهنود فلم يموتوا بسبب «احتكاكهم» بالأوروبيين أو لأن هذه الأمراض كانت سلاحاً من أسلحة الإبادة بل بسبب فقرهم للمناعة الكافية، خاصة وأن الإنكليز الأبرياء المسالمين في ذلك الزمان كانوا لا يعرفون شيئا عن خطر هذه الأوبئة!

بهذا المنطق يؤكد التاريخ المنتصر أن حرب الإبادة الجماعية التي أفرغت العالم الجديد من سكانه، وقضت على أكثر من أربعمائة شعب وأمة وقبيلة٣ كانت تنتشر في الشمال الأميركي فوق مساحة أكبر من أوروبا بنصف مليون ميل مربع، وكل ما واكب هذه الإبادة من فظائع كان مجرد «مأساة غير مقصودة حدثت برغم الرغبة الجادة والأكيدة لدى الأوروبيين في الحفاظ على حياة الهنود. إن السبب الأول لموت الهنود هو الأوبئة التي لم يكن لديهم مناعة ضدها. فالطبيعة، وليس الأذى المتعمد، هي السبب في هذا الدمار»٤. وبالتأكيد فإن صاحب هذا التشويه التاريخي وأكثر المتعصبين حماسة لعامل الأمراض اليوم، هم أولئك الحَصريون الذين يحبون أن يحتكروا فكرة الضحية لأنفسهم، ولا يريدون للذاكرة الإنسانية أن تسجل جريمة أكبر من الجريمة التي ارتكبها النازيون بحقهم وحدهم.

وبهذه العنصرية التي تسللت بكل ساديتها إلى مملكة الموت أقيم متحف الهولوكست في واشنطن، على أنقاض مدينة نكونشتناكه الهندية وفوق رمم شعب الكونوي الذي أباده الغزاة في ١٦٢٣. هنا على ضفاف نهر البوتوماك تورط المستعمرون الإنكليز تلك السنة في إحدى حروبهم الشفافة عند مفاوضاتهم مع القبائل التي كان يعيش بعضها حيث يقام متحف الهولوكست اليوم.

كان الزعيم الهندي تشيسكياك Chiskiack يتولى المفاوضات. وقد دشنها الإنكليز بدعوته هو وكل حاشيته من الهنود لشرب الأنخاب تعبيرا عن «الصداقة الخالدة بين الأمتين». وكانت أنخاب الصداقة ـــ كالعادة ـــ مسمومة طرحت الزعيم تشيسكياك صريعا تحت أقدام مفاوضيه وقتلت معه أسرته ومستشاريه ومئتين من حاشيته٥. ألم يكن جورج واشنطن يعلم بما جرى لشعب الكونوي ومدينته التجارية نكونشتناكه عندما أعلن أن الأرض التي اختارها لبناء عاصمته هي مجرد مستنقعات خاوية marchy wilderness ألم يلحظ تخمة الغربان وامتلاء التماسيح؟

عبارة «العامل الطبيعي» التي يتكىء عليها محتكرو الهولوكست لتبرير انتصار الموت، ليست في الواقع إلا الترجمة الحديثة لعبارة «العناية الإلهية» التي استخدمها قبلهم أنبياء المستعمرين الإنكليز في أوائل القرن السابع عشر عندما قالوا إن هذه الأوبئة نعمة أرسلها الله لتطهير الأرض التي أعطاها لشعبه. ومنهم من اعتبرها، كما يروي تودوروف، معجزة لا تقل عن معجزة الأوبئة العشرة التي يقال إنها فتكت بالمصريين في زمن موسى. حتى قبل أن تبحر سفينة الحجاج الأولى ماي فلور Mayflowerمن ساوث هامپتون، لم ينس الملك جيمس أن يحمد الله على هذا «الوباء البديع wonderful plague الذي أزاح المتوحشين من بين أقدامنا»٦. وهذا ما أعاد صياغته بلغة مختلفة جون ونثروپ John Winthrop الحاكم الأول لمستعمرة ماساشوستس في رسالة إلى ناتنيال ريش بتاريخ ٢٢ مايو ١٦٣٤، يطمئنه فيها إلى أن كل المستوطنين الأربعة آلاف في صحة جيدة: «فبفضل الله ونعمته لم يمت منهم في السنة الماضية سوى اثنين أو ثلاثة بالغين وبعض الأطفال، وكنا نادراً ما نسمع عن مرض الملاريا أو غيرها من الأوبئة... أما السكان الأصليون فإنهم ماتوا كلّهم تقريبا بالجدري، وبذلك أعطانا الله صك ملكية هذه الأراضي»٧.

كانت أكوام الهياكل العظمية تنتشر على طول شواطىء ڤرجينيا وكارولينا (الشمالية والجنوبية اليوم) في منظر ألهم المستعمرين أن يسموا البلاد بالجلجلة الجديدة New Found Golgotha، لكنها «جلجلة بهيجة أثلجت قلوب مكتشفيها لأنها آية إلهية تدل على رضا السماء عن موت الهنود وعن مواكبة العناية الإلهية لاستعمار العالم الجديد»٨.

وكان وليم برادفورد حاكم مستعمرة بليموث يرى أن نشر هذه الأوبئة بين الهنود عمل يدخل السرور والبهجة على قلب الله، «فمما يرضي الله ويفرحه أن تزور هؤلاء الهنود وأنت تحمل إليهم الأمراض والموت. هكذا يموت ٩٥٠ من كل ألف منهم، وينتن بعضهم فوق الأرض دون أن يجد من يدفنه. إن على المؤمنين أن يشكروا الله على فضله هذا ونعمته»٩. كانت هذه «المعجزات» الإلهية صورة عن رغبات المستوطنين وطموحاتهم. فلطالما توحدت القدرة الإلهية مع الشعب المختار كما يرى كوتون ماذر، أحد أبرز أنبياء الإستعمار، «فبعد أن ظن هؤلاء الشياطين أن بعدهم عن العالم سينقذهم من الإنتقام استطاع الله أن يحدد مكانهم ويكتشفه، وأرسل قديسيه الأبطال من إنكلترا، وأرسل معهم بعض الأوبئة السماوية القاتلة التي طهرت الأرض منهم. إن الله يفسح مكانا لشعبه في هذه المجاهل إذ هو يقتل الهنود بأوبئة من أنواع مدمّرة لا يعرف لها

البشر مثيلا إلا ما تحدثت عنه التوراة.»١.

وما تزال أرستقراطية الاجتياح إلى اليوم تقيم الصلوات والمهرجانات والتماثيل ابتهاجا بهذا الموت، الذي صنعته بأعمال السخرة تارة وبالتجويع تارة وبتبادل الهدايا المسمومة تارات. إنك لو زرت سان فرانسيسكو وسقت على الطريق ١٠١ أو ٢٨٠ سترى فوق رأسك تمثالا عملاقا يرتفع أكثر من عشرة أمتار في السماء ويمد سبابته المكتنزة نحو الأفق كفوهة المدفع القديم. تمثال له شكل الكاپوتشينو البارد شيّد تخليدًا لجونيبرو سِرّا Junipero Serra مدير أحد أكبر معسكرات الموت في شمال كاليفورنيا. كان سرّا يتلذذ بتعذيب ضحاياه وشنقهم بالجملة، وكان صاحب الدعوة الشهيرة إلى تفعيل «العامل الطبيعي» بذبح كل العرق الهندي: The entire race of Indians should be put to knife. إن معسكره ما يزال قائما إلى الآن، يحيط بفناء واسع يذكرك بضحايا فناء الكوليسيوم الروماني، وتتقدمه مقبرة كبيرة تجوس فيها أشباح الجلاد المقدس. حتى داروين نفسه في رحلته الأسطورية على متن السفينة بيغل Beagle إلى كثير من بقاع أميركا وعدد من الجزر و«المجاهل» التي سبقته إليها سفن الغزاة، لاحظ هذا التلازم بين ظهور «العامل الطبيعي» وبين الاجتياحات الأوروبية، وكتب في مذكرات رحلته The Voyage of the Beagle ملاحظة لا تقل أهمية عن نظريته في الانتخاب الطبيعي فقال: «إنه حيثما خطا الأوروبيون مشى الموت في ركابهم إلى أهل البلاد» [التي يجتاحونها]. وكذلك لاحظ هوارد سيمبسون Howard Simpson في مقدمة كتابه الرائع عن دور الأمراض في التاريخ الأميركي Invisible Armies [جيوش خفيّة] أن المستعمرين الإنكليز لم يجتاحوا أميركا «بفضل عبقريتهم العسكرية، أو دوافعهم الدينية، أو طموحاتهم، أو وحشيتهم، بل بسبب حربهم الجرثومية التي لم يعرف لها تاريخ الإنسانية مثيلا».

حرب الجراثيم وأخواتها

قبل فحص وثائق هذه الحرب الجرثومية، لا بد من النظر في بعض العناصر المساعدة التي رافقتها، فهناك اليوم أكثر من دليل على أن هؤلاء الذين كانوا ينشرون الأوبئة حيثما تطأ أقدامهم، كانوا يعرفون من تجاربهم السابقة أن سياسة العمل بالسخرة والتجويع الاجباري والترحيل الجماعي وتقويض معنويات الضحايا، تشحذ أنياب الأوبئة وتزيدها فتكا. إن معظم هؤلاء القديسين تمرسوا في الإجتياحات الإنكليزية لإيرلندا، أو في الحروب مع الأتراك. ومعروف أن الكابتن جون سميث John Smith مؤسس أول مستعمرة إنكليزية دائمة في العالم الجديد، بدأ نشاطه العسكري ضد الإسبان قبل أن يدرك العشرين، ونال رتبة كابتن حين تطوع في الجيش النمساوي وحارب العثمانيين الذين أسروه وباعوه عبدا لرجل تركي. وقد أمضى سنتين في العبودية قبل أن يقتل سيّده ويهرب عائدا إلى إنكلترا.

وفعلاً فقد كان نظام السخرة من أفتك أسلحة الأوبئة في فلوريدا وتكساس وكاليفورنيا وأريزونا ونيومكسيكو. كان الهدف المعلن هو تمدين هؤلاء المتوحشين جسديا وإنقاذ أرواحهم

أخرويا. وبالطبع، كان لا بد من «أضرار هامشية» ترافق انتشار الحضارة وطريقة حياتها. فحملات التمدين والتطهير الروحي لم تكن إلا مصائد خرافية لتعليب هذا السردين الآدمي. كان هناك جنود مدربون على هذا الصيد يطاردون الهنود كما يطارد رعاة البقر جواميس البراري، عبر أسوار منصوبة على شكل زاوية حادة تظل تضيق عليها وتضيق إلى أن يصبح أمام هذه البهائم الغافلة «خيار وحيد» اسمه المصيدة. مصائد أشبه بحظائر الكلاب، لا يخرجون منها إلا للتغوط الجماعي المقنَّن في حفر مفتوحة، أو للعمل الإجباري في الحقول والطواحين والأعمال القذرة من الصباح إلى المساء. خلال أسابيع قليلة كان الهندي يموت من المرض والإجهاد وسوء التغذية، فقد كانت كمية الطعام التي تقدم للعبد الأسود تعادل ثمانية أضعاف الطعام الذي يُقدم للهندي. ولم يكن ذلك حباً بأفريقيا أو غراماً بالسود أو تمييزاً عنصرياً، بل كان سببه الأول والأخير أن الهنود أرخص من السمك، فهم في متناول اليد وكلفة استبدالهم أرخص من إطعامهم، أما استيراد العبد الأفريقي فدونه خرط المحيط.

في عام ١٨٤٦ احتلت جيوش الولايات المتحدة كاليفورنيا. وتقول الإحصائيات إن عدد هنود كاليفورنيا في تلك السنة كان أقل من ربع ما كانوا عليه في عام ١٧٦٩. ومع ذلك فخلال العشرين سنة الأولى من احتلال هذه الولاية أبيد ٨٠ بالمئة من هذا «الربع» بسبب نظام السخرة. إن «ثروة الأمم» التي أعطت السلطة السياسية لأصحاب مناجم الذهب والمزارع الأسطورية سرعان ما شرّعت استعباد الهنود كسلاح غير مباشر، لإبادتهم كما تم قبل ذلك في كولورادو وغيرها من ولايات الذهب. ولأنه لا بد من يد عاملة رخيصة لاستثمار هذه الولاية الغنية، فقد نشطت تجارة خطف أطفال الهنود. ولطالما كتبت صحف تلك الفترة عن الشاحنات المحشوة بأطفال الهنود، وهي تهوي في الطرقات الريفية الخلفية إلى أسواق العبيد في سكرامنتو وسان فرانسيسكو. ومع نقص عدد النساء في سنوات الاحتلال الأولى فقد زاد الإقبال على خطف الفتيات اللواتي يقدمن خدمة مضاعفة: العمل والمتعة. وهذا ما أحال آباء هؤلاء المخطوفين إلى «عناصر شغب» تستأهل العقاب، وأدى كذلك إلى هرب معظم الأسر الهندية من منعزلاتها وأماكن سكنها التقليدية. أما شركات الخطف فقد تحولت إلى ميليشيات خيرية، إذ صار الخاطفون يقتلون الآباء ويشاركون الدولة في القضاء على عناصر الشغب، بينما يعتبرون خطف اليتامي وبيعهم مهمة إنسانية نبيلة وعملاً أخلاقياً يتباهون به.

في أوائل ١٨٥٠، وفي أول جلسة تشريعية لكاليفورنيا سنّت الولاية قانون «حماية الهنود» الذي أضفى الشرعية على خطفهم واستعبادهم. واقتضت «حماية» الهنود بموجب الملحقات التي أضيفت إلى القانون في عام ١٨٦٠ إجبار أكثر من عشرة آلاف هندي على أعمال السخرة. ولأن معظم الذين هربوا بأرواحهم وفراخهم إلى الغابات والجبال الوعرة صاروا يعيشون، في ما أصبح يسمى بأملاك الولايات المتحدة، فقد تحولوا بموجب قوانين الذين سرقوا بلادهم إلى «لصوص معتدين على أملاك الغير». ولم تمض سنة على صدور قانون «حماية الهنود» حتى ضاق حاكم الولاية بيتر بيرنت Peter Burnett ذرعاً بحمايتهم وعبّر عن الحاجة إلى إبادة هذا «الجنس

اللعين»، ووجّه رسالة إلى المجلس التشريعي قال فيها «إن الرجل الأبيض الذي يعتبر الوقت ذهبا، والذي يعمل طول نهاره ليبني حياة سعيدة لا يستطيع أن يسهر طول الليل لمراقبة أملاكه...ولم يعد أمامه من خيار سوى أن يعتمد على حرب إبادة. إن حرب الإبادة قد بدأت فعلا، ويجب الاستمرار فيها حتى ينقرض الجنس الهندي تماما»١١.

ولم يكن الذين تم ترحيلهم جماعيا بأحسن حالا من الذين خضعوا لأعمال السخرة والاستعباد. فبعد أن سنّ الكونغرس في عام ١٨٣٠ قانون ترحيل الهنود بالقوة من شرق المسيسيبي إلى غربه، صار من حق كل مستوطن أن يطرد الهندي من بيته وأرضه وأن يقتله إذا لم يستجب لصوت العقل. وكانت «رحلة الدموعTrail of Tears » أولى ثمار هذا القانون. يومها حاصرت قوات من الجيش النظامي مَن لم يمت بعدُ من هنود خمسة شعوب هم الشيروكيCherokee والشوكتوChoctow والشيكاسو Chickasow والكريك Creek والسيمينول Seminole وحشرتهم في معسكرات جُهّزت سلفا لتجميعهم في انتظار يومهم الموعود مع «الحضارة وطريقة حياتها». وما أن تأكد الجيش أنه لم يبق بيت ولا كوخ ولا خيمة ولا كهف ولا غابة ولا مقبرة تؤوي شبحا أحمر حتى سيقت بقايا هذه الشعوب بنسائها وأطفالها وشيبها وعجزتها مئات الأميال عبر ولاية تنسي، فكنتكي، فإلنويز، فميزوري ليقطفها الصقيع والجوع والمرض والإجهاد روحا فروحاً. وككل حفلات الموت التي ترعاها الحكومة فإن منظمي رحلة الدموع ساقوا الهنود عن قصد عبر مناطق يعرف القاصي والداني أنها كانت موبوءة بالكوليرا وغيرها من الأمراض، وأطعموا ضحاياهم من طحين فاسد ولحم منتن.

كان «العامل الطبيعي» في أوج نشاطه، فقد مات ١٥ بالمئة من مهجّري شعب الشوكتو الأربعين ألفا، وكذلك كانت نسبة مَن تساقط من شعب الشيكاساو. أما شعبا الكريك والسيمينول فمات منهم أكثر من نصف مهجّريهم، سقط معظمهم في الأيام الأولى لرحلة الدموع، بينما حصدت الحمّى الصفراء منهم ٣٥٠٠ ضحية. ومات من مهجّري شعب الشيروكي ٥٥ بالمئة بالأمراض والجوع والإجهاد المضني الذي عانوه أثناء الترحيل القسري ١٢. ويقول جيمس موني James Mooney الذي استجوب عددا من الذين شاركوا في عملية الترحيل: «لقد تم نشر الجيش في معظم مناطق الشيروكي، وبدأ الجنود بتمشيط المدن والقرى والغابات والكهوف وضفاف الأنهار لصيد الناس وجمعهم في حصون. كان هؤلاء يرون بأعينهم كيف تأكل النيران بيوتهم وحقولهم وقراهم على يد مستوطنين يزحفون وراء الجنود للسرقة والنهب واغتصاب أملاكهم بما في ذلك نبش الفضة والذهب والأحجار الكريمة من باطن قبور أهلهم وأحبابهم»١٣.

وكان ذلك القرن قرن الترحيل القسري المنظم لكل الشعوب الهندية التي كانت تعيش شرق الميسيسيبي. فما جرى للشيروكي تكرر بصورة كلاسيكية مع كل الشعوب الهندية في الشمال الأميركي؛ من حدود المكسيك جنوبا حتى القطب شمالا، ومن ماريلاند وڤرجينيا شرقا حتى أورغون وواشنطن على المحيط الهادي، كلهم قضوا بنسب متفاوتة، بين شعوب اختفت تماما من

الذاكرة البشرية وشعوب تتراوح نسبة الناجين منها بين ٥ و١٥ بالمئة مما كانت عليه بعد موجات الإبادة الأولى التي اشترك فيها الإسبان بشكل أساسي ومعهم بعض الشعوب الأوروبية الأخرى مثل البرتغال والفرنسيين والألمان. فبعد أقل من ثلاثين سنة مضت على «رحلة الدموع» سيق مَن تبقّى من شعب الناڤاهو Navajo أيضا فى هجرة قسرية مختلفة تعرف باسم «المسيرة الطويلة The Long Walk». في البداية، تكاتفت جهود الجيش والمستوطنين لصيد «آخر الناڤاهو» وتجميع طرائدهم في معسكر خاص بأريزونا استعدادا لترحيلهم مشيا على الأقدام أو على ظهور الدواب التي نفق معظمها قبل الإقلاع. ثم تولت قوى الجيش ترحيلهم من أريزونا إلى نيو مكسيكو؛ أكثر من أربعمائة كيلومتر في صقيع شتاء تلك الطبيعة الوحشية حيث مات منهم نصف أحيائهم بحسب أكثر التقديرات تواضعا١٤. كذلك خسر شعب الشايين Cheyenne نصف بقاياه النادرة أثناء ترحيله بالقوة إلى مثواه الأخير في معسكر للموت البطيء في أوكلاهوما. وهناك تعرضوا لسياسة التجويع والحصار التي لم ترفع عنهم جزئيا إلا بعد التوقيع على اتفاقية تنازلوا فيها عن معظم أراضيهم.

سياسة التجويع والتدمير الشامل للبنى الاقتصادية اللازمة للحياة كانت من أهم أسلحة الإبادة سواء في أثناء الترحيل القسري حيث كان الطعام قليلا وملوثا، أو في معسكرات المثوى الأخير حيث تكفلت سياسة التجويع غالبا بصياغة بنود اتفاقيات الهدنة. ويروي كينيث كارليKennith Carley في «انتفاضة [شعب] سو Uprising of the Siox ١٨٦٢» كيف تعرض هنود سانتي داكوتا المسالمون للتجويع القاتل، وكيف أن أندرو ميريك مفوض الدولة الاتحادية للإعاشة أجاب على احتجاجاتهم قائلا لزعيمهم تاويادوتا Taoyateduta المعروف باسم الغراب الصغير: «إذهب أنت وشعبك فكلوا من حشيش الأرض وإذا شئتم فكلوا خراءكم». عندها لم يتمالك تاويادوتا أعصابه فهجم على المفوض وقتله ثم حشا فمه ـــ وكان مهذبا ـــ بالحشيش فقط. وهذا ما أدى إلى تعليق مشانق كل زعماء السانتي وإلى انتفاضة شعب السو الشهيرة عام ١٨٦٢.

بدأت سياسة التدمير الشامل لكل أسباب الحياة الهندية في العالم الجديد منذ اللحظة الأولى لشروق الشمس الإنكليزية على جزيرة روانوك التي استقبلهم أهلها عام ١٥٨٠ بالترحاب فأقطعوهم ما شاءوا من الأرض وآووهم وكسوهم وأطعموهم الطعام على حبه وعلموهم أسباب البقاء في هذه الطبيعة الغريبة عنهم. ولكن ما أن اشتد ساعدهم قليلا حتى راحوا يخترعون الأعذار للقتل العشوائي ويتحينون الفرص لإتلاف المحاصيل وإحراق القرى والحقول وقطع أسباب الحياة عن الهنود عمدا. وكان الهنود قد لاحظوا منذ الأيام الأولى أن المستعمرين كانوا ينبشون القبور لسرقة ما فيها أو لأكل جثثها الطازجة أحيانا١٥ . ثم تصاعدت خطة التجويع والتدمير الاقتصادي وازدادت تنظيما وتركيزا واستهدافا على مدى القرنين التاليين إلى أن أصبحت في القرن التاسع عشر سياسة رسمية معلنة للولايات المتحدة الأميركية، كما يروى إدموند مورغن١٦ .Edmund S

Morgan. وكانت مستعمرة جيمستاون، وهي أول مستعمرة إنكليزية دائمة في شمال أميركا، قد رسمت الملامح الأساسية لهذه السياسة في عام ١٦١٠، أي بعد أقل من ثلاث سنوات من تأسيسها عند مصب النهر الذي سمي باسم جلالة الملك جيمس. فتحتَ عنوان «حق الحرب» أعلنت هذه السياسة ــ كما نشر بيانها بعد ذلك في لندن عام ١٦٢٢ ــ عن حق الانكليزي باعتباره من «الشعب المختار» المتفوق بالوراثة في «أن يجتاح البلاد ويدمر أهلها»... «حيثما تحلو لنا مواطنهم الخصبة ... وأراضيهم التي سنستوطنها بعد تطهيرها من سكانها»١٧. إنها مجرد «أضرار هامشية» ترافق انتشار الحضارة وطريقة حياتها. فتحقيق هذه السياسة التوسعية يحتاج بالتأكيد إلى موجات متلاحقة من الترحيل القسري والمذابح الجماعية وما صار يعرف لاحقا بعقيدة «القدر المتجلي Manifest Destiny» التي تقول بحتمية وقدرية التوسع الأميركي والزحف مع دوران الشمس حيثما تدور من الشرق إلى الغرب، وهي العقيدة التي استعارها هتلر بعد حوالي نصف قرن بكثير من التواضع والحذر وسماها «سياسة المجال الحيوي Lebnsraumpolitik».

وكان مجلس فرجينيا قد أضاف إلى بيان «حق الحرب» بندا أساسيا لتزييت سياسة التوسع بمعاهدات سلام واتفاقيات تخدر الفرائس إلى أن يحين وقت صيدها، وتمنح شعب الله فرصة أفضل للمباغتة والتدمير. لم يكن لاتفاقيات السلام إلا هدف واحد هو خرق هذه الإتفاقيات. فحين يطمئن الهنود إلى أن الاتفاقية قد كفتهم شر القتال وهمّ الحذر والحراسة، «عندها [كما يقول مجلس دولة ڤرجينيا] يتوجب علينا أن نغتنم الفرصة فنفاجئهم ونتلف محاصيلهم ونحرق حقولهم١٨».

في غارة واحدة، كما يروي جيمس أكستل في كتابه «ما بعد كولومبس»، أتلف المستوطنون كمية من الذرة كافية لإطعام أربعة آلاف إنسان لمدة سنة كاملة.» بينما يقدم فيليب بروس في كتابه عن «التاريخ الإقتصادي لڤرجينيا» حسابا آخر لهذه الغارة فيقول إن الإتلاف طال ثلاثة آلاف فدان من الحقول. وفي أواخر الشتاء اعترف هنود إمبراطورية البوهاتن بأن عدد موتاهم تلك السنة أكبر من عدد كل الذين ماتوا خلال الخمس عشرة سنة الماضية التي «استضافوا» فيها الإنكليز بينهم. وكانت هذه الإمبراطورية من أكبر فيدراليات شواطىء الأطلسي الوسطى، تزيد مساحتها على مساحة الجزيرة البريطانية وينضوى تحت لوائها خمسة شعوب هندية وعدد كبير من القبائل الصغيرة لا يقل عددهم عن عدد سكان إنكلترا في تلك الأيام، لكنها، بعد أقل من عشرين سنة من الوجود الاستعماري الانكليزي «لم تعد أمة» كما أوضح المستوطن روبرت بينِت Robert Bennett في رسالة شماتة كتبها إلى أخيه إدوارد في ٩ يونيو/ حزيران ١٦٢٣. عشرون سنة وتحولت هذه الإمبراطورية العظيمة إلى ما هو «أقل من أمة».

واستمرت إبادة البوهاتن بانتظام ودأب وتصميم، إذ كان يقتل منهم المئات في مناوشة بعد مناوشة، ويقتل المئات بالتسميم الجماعي أو في طراد كلاب الصيد الدموية وكلاب الحراسة التي كانت تتعقبهم. وكانت دعوات المستعمرين إلى السلام لا تتم إلا حين الحاجة إلى الاستجمام والراحة وتحضير السموم. وقبل أن ينتصف القرن أسر خليفة بوهاتن المعروف باسم أوپشنكانو

Opechacanough وألقي به في زريبة صغيرة حيث عومل كما تعامل البهائم. ولحسن حظه فقد أطلق مستوطن عليه النار من خلفه فقتله وأنهى عذابه بعد أسبوع من أسره. وكان زعيم البوهاتن يومها عجوزا ضريرا عاجزا عن المشي.

بعد حوالي قرن من «انتشار هذه الحضارة وطريقة حياتها» شاءت معجزات «العناية الإلهية» أن لا تبقي من سكان إمبراطورية البوهاتن أكثر من ٦٠٠ إنسان حي، وأن تجعل بلادهم «مغطاة بالهياكل والجثث التي لم تجد أحدا يدفنها»١٩.

ولم تكن امبراطورية بوهاتن فريدة في مصيرها، فقد تبنّت يومها كل المستعمرات الانكليزية خطة مشتركة أطلقها وليم بيركلي Sir William Berkeley حاكم ڤرجينيا المتهم من قبل منافسه ناتنيال بيكونNathaniel Bacon بسياسته الممالئة للهنود! وتقتضي الخطة التي وضعت حدا للجدال حول أولوية الإبادة أم الاستعباد بتنظيم حملات إبادة لكل البالغين الذكور على أن يتم تمويل هذه الحملات من عائدات بيع الأطفال والنساء في أسواق العبيد٢٠.

|

وأعيد سيناريو العمل بالسخرة والتجويع الاجباري والترحيل الجماعي وتحطيم المعنويات مع كل مرحلة من مراحل التوسع. ففي عام ١٨٧٠، كما يروي ريتشارد درينونRichard Drinnon في كتابه التحليلي لعنصرية الزنابير «حارس معسكرات الإبادة Keeper of Concentration Camps»: اجتاح الجنرال جورج كلارك George R. Clark مناطق هندية تابعة لما صار يعرف اليوم بولايات أوهايو وإنديانا وإلينويز، وكتب في تقديره للأضرار «الهامشية» الأولية: « إن أكثر من خمسمئة هكتار من حقول الذرة تم إتلافها، إضافة إلى مزارع كل ما يمكن أكله من خضار ومزروعات حول مدينتي شيليكوت Chillicothe وبيكا Piqua الهنديتين التابعتين لشعب الشاوني». وبعد خمسة عشر عاما كتب الجنرال أنتوني واينAnthony Wayne المعروف لدى أصدقائه وأعدائه باسم أنتوني المسعور Mad Anthony (لعله جد الممثل الكاوبوي جون واين) بعد حملة على شعب الشاوني وحلفائه: « أمضينا ثلاثة أيام بلياليها على ضفاف المومي... ونحن ندمر البيوت والقرى ونتلف حقول الذرة الممتدة إلى نهاية الأفق. وفي بعض الأحيان أحرقنا حقولا للذرة كانت تمتد أكثر من خمسين ميلا (حوالي ٨٠ كلم) على ضفة النهر».

وعلى خطى المستعمرين الأوائل الذين أبادوا شعب البيكو فشعب الناراغنست وغيرهما من شعوب المنطقة التي أطلقوا عليها إسم «إنكلترا الجديدة» قام مستعمرو كارولينا بإبادة شعب التوسكارورا أحد أكبر شعوب المنطقة وأكثرها قوة ورخاء. وتحت الأعذار الكثيرة التي يتقدمها عذر أن الهنود اعتدوا على المستعمرين المسالمين فلم يسمحوا لهم بالاستيطان السلمي والتوسع السلمي والنهب السلمي تم إتلاف محاصيل التوسكارورا وحقولهم ومزارعهم وتعريضهم للجوع والإقتلاع وقضم حياة أبنائهم مناوشة بعد مناوشة. غير أن هذا التدمير المنظم بلغ ذروته ما بين ١٧١١ و١٧١٣ عندما أقنع المستعمرون شعوبَ الموسكيجيMuskogees والشيروكي Cherokee والكاتاوباس Catawbas بأنهم أصدقاء مسالمون، وأن العدو الذي يهدد الحضارة والحياة هو شعب

التوسكارورا القوي، وأن من مصلحة الإنكليز وكل الشعوب الهندية «المتحضرة» أن يتحالفوا مع الإنكليز ويضعوا حدا لعدوانه وخطره. هكذا بدأ «التحالف» بسلسلة من الغارات على قرى ومدن التوسكارورا وعلى عاصمته نيهوروكا Neoheroka فأحرقها وأباد أهلها وشرد الكثيرين منهم إلى الشمال حيث التحقوا بالأمم الخمس. غير أنه لم تمض سنوات أربع حتى دارت الدائرة على «الحلفاء» الذين جُرِّدوا سريعا من لقب «التحضر» ولم يكن مصيرهم بأحسن من مصير إخوانهم «الوحوش».

كان الغزاة الأوائل يسمون بالحجاج أو القديسين. وما يزال التاريخ الأميركي إلى الآن يضفي عليهم قداسة طوباوية ويعتبرهم أول نموذج للاستثناء الأميركي الذي فضله الله على العالمين وأورثه ما أورث بني إسرائيل من قبل، وجعل العهد الذي عقدوه مع الله على متن سفينتهم الأسطورية Mayflower من اللحظات النادرة الخالدة في التاريخ الإنساني كما يقول الرئيس الأميركي جون أدامس، فعهدهم مع الله جبّ عهد الإسرائيليين القدامى، وتأسيس مستعمرتهم على صخرة پليموث ضاهى تأسيس الكنيسة على صخرة بطرس.

قصة هؤلاء «الحجاج» هي الأصل الأسطوري لكل التاريخ الأميركي ومركزيته الانكليزية العنصرية ethnocentrism. وما يزال كل بيت أميركي يحتفل سنويا في «عيد الشكر» بتلك النهاية السعيدة التي ختمت قصة نجاتهم من ظلم فرعون البريطاني و«خروجهم» من أرضه، و«تيههم» في البحر، و«عهدهم» الذي أبرموه على ظهر سفينتهم مع الله، ووصولهم في النهاية إلى «أرض الميعاد». ويعتبر هذا العيد الطقسي الذي يبجله الأميركيون وطنيا ودينيا أكثر من أي عيد آخر، بما في ذلك عيد الاستقلال، من أكثر أعياد أميركا قدسية. . في هذا العشاء الطقسي الذي يذبحون فيه سنويا بين عشرين وثلاثين مليون «تركي» شكرا لله الذي وقف منذ اللحظات الأولى لاستعمار أميركا إلى جانب شعبه يستعيد الأميركيون أسطورة تاريخهم بكل ما يعنيه مرسيا إلياد بطقسية الإحتفال بالأسطورة. فهو طقس يتضمن تقديس فعل الإستعمار الإستيطاني والتأكيد على التفوق الطبيعي والأخلاقي للمستعمرين، وهو تأكيد على صدق الأسطورة وحياتها المتجددة، وهواحتفال برعاية الله لكل عناصر أسطورة الولادة المقدسة للتاريخ الأميركي، وهو ـــ من خلال هذا الطقس الاحتفالي ـــ يؤكد على التسامي بالأسطورة ومعايشتها كدين.

وتقول الأسطورة إن الحجاج اختاروا پليموث لجمالها وجداول مياهها العذبة وخيرها الوفير وحقولها الخصبة، كما تعترف بأن هنود البيكو Pequots أنقذوهم من الموت جوعا وأنهم لهذا أولموا لهم ودعوهم للاحتفال معهم فيما صار يعرف بعد أكثر من قرنين (عام ١٨٩٠) بعيد الشكر. على الضفة الأخرى لهذه الأسطورة يعتقد الهنود الذين قدموا للحجاج ما لم يقدمه الأنصار للمهاجرين أن الجحود هو المعنى الحقيقي لعيد الشكر، لا لأن العيد كان عيد حصادهم الذي كانت تحتفل به الشعوب الهندية الشرقية سنويا، ولا لأن طعام ذلك العيد كان من صنع

أيديهم ومن حلال مالهم وحقولهم وديكة غاباتهم، وإنما لأنهم عضّوا اليد التي أطعمتهم وسقتهم وانتشلتهم من الموت المحقق. كانت سياسة الإذلال والترويع التي انتهجها الحجاج ومِن قبلهم مستعمرو ڤرجينيا أفضل تعبير عن شكرهم للضيافة الهندية. فكثيرا ما كانوا يقتلون الهنود الذين يحملون إليهم الطعام والهدايا، بل كانوا يقدمون لهم المغريات الكثيرة لزيارتهم من أجل أن يكمنوا لهم ويقتلوهم. وكانت الوسيلة المحببة لاستدراجهم واستخراج ذهبهم خطف أولادهم لما لاحظوه من تراحم الأسرة الهندية في ما بينها وتكافلها ورعايتها لأطفالها.

لقد أعطى هنود البيكو للحجاج ما أعطاه قبلهم هنود البوهاتن لمستعمري ڤرجينيا وعلموهم كيف يزرعون الأرض وكيف يعتمدون على خيراتها. فإذا كان للحجاج أن يشكروا أحدا فليشكروا هنود البيكو، أو ليشكروا سكوانتو Squanto على الأقل؛ هذاالطفل الهندي الذي خطفه نخاس إنكليزي صغيرا فاستعبده في بريطانيا ثم باعه في ملقا، ثم هرب من العبودية مرتين فعاش في بريطانيا وإسبانيا قبل أن يبدأ رحلة العودة إلى وطنه ويقطع المحيط الأطلسي ذهابا وإيابا ست مرات لاقى فيها من الأهوال ما يجعل من أوديسة أوليس سباحة في بركة البيت. لقد عاد سكوانتو إلى پليموث في عام ١٦١٩ ليجد أن «العامل الطبيعي» قد أباد كل قبيلته. ثم إنه عمل مترجما متطوعا بين الحجاج وبين الهنود. وتكشف قصة سكوانتو مع الحجاج التفوق الأخلاقي والعقلي والحضاري للهنود. وتروي عشرات الكتب التي أرخت لهذا الفتى الأسطورة وعشرات الأفلام وقصص التبشير التي استلهمت سيرة حياته وجنت منها الملايين كيف انتشل سكوانتو أسطورة أميركا من الموت في شتائها الأول حين أحضر للحجاج الطعام وعلمهم كيف يزرعون الذرة واليقطين وأنواع الحبوب والقرعيات، وكيف يصطادون السمك ويسمدّون الأرض ببعض أنواعه، بل وكيف يغتسلون ويتخلصون من قذارتهم وروائحهم الكريهة عبثا. وتتحدث فيني زاينرFeenie Ziner في كتابها عن سكوانتو وروبرت لويب Robert Loeb في كتابه عن «حقيقة الحجاج» وفرانسيس جننغز في «اجتياح أميركا» كيف إن سكوانتو لاحظ أثناء حياته في اسبانيا وإنكلترا أن الأوروبيين يكرهون النظافة وقلما يغتسلون أو يبدلون ثيابهم وكيف إنه تقزز من روائح الحجاج الكريهة وحاول عبثا إقناعهم بالاغتسال والنظافة ٢١.

لقد أتى «العامل الطبيعي» على حياة سكوانتو سريعا فألحقه الجدري بأهله الهنود وإن كان الحاكم وليم برادفورد ـــ وهو من أبرز من أبرموا العهد مع الله على متن سفينة الحجاج ماي فلور ـــ قد تمنى له مآلا أرفع من مآل أهله وثنيي كنعان الجديدة فرثاه ودعا له بأن تصعد روحه إلى الرفيق الإنكليزي الأعلى في السماء «to the Englishman's God in Heaven». وقد كانت تلك الصلاة عمليا آخر عيد للشكر شهدته أميركا.

بعد حوالي ١٥ سنة على مصرع سكوانتو أتم الحجاج المرحلة الأولى من إبادة هنود البيكو وحلفائهم بالقتل المباشر وبتدمير كل أسباب حياتهم الإقتصادية، لكن جون مايسون John Mason الذي أسس قواعد مستعمرة كونتيكت وكتب «التاريخ الوجيز لحرب البيكو» يرى أن القتل المباشر كان السلاح المفضل لدى الحجاج، وأن حرق الحقول والمزارع كان عاملا إضافيا. كان

مايسون كغيره من أنبياء المستعمرات يعتقد أنه رسول العناية الإلهية إلى «أرض كنعان الفارغة»، ولطالما أكد على أن الله هو الذي وعدهم بأرض كنعان التي لا يوجد فيها إلا القليل من البشر٢٢.

وهكذالم تمض ستون سنة على ولادة الأسطورة الأميركية حتى قضى الحجاج ونسلهم المقدس على الكنعانيين هنود البيكو والنيانتك عبر حرب تدمير منظمة شاملة للقرى والمدن والحقول وكل ما يعتبر ضروريا لاستمرار الحياة.

في عام ١٩٧٠ سألت وزارة التجارة في ولاية ماساشوستس بقايا هنود الوامبانوغ أن يختاروا منهم خطيبا للمشاركة في الإحتفال بالذكرى ٣٥٠ لعيد الشكر، ولكن بشرط أن تعرض الكلمة على «زنابير الوزارة» قبل قراءتها. واختير فرانك جيمس لهذه المهمة، فكتب كلمته وأرسلها إليهم. وبالطبع لم يسمحوا له بالمشاركة. وكان مما كتبه هذا الهندي: «هذا يوم عيد لكم وحدكم. إنه ليس عيدي. إنني أنظر إلى ما حدث لشعبي بقلب منفطر. فبعد يومين أو ثلاثة أيام من وصول الحجاج إلى «كايب كود» بدأوا بسرقة قبور أجدادي ونهب ما لديهم من ذرة وقمح وحبوب. لقد شاهد القائد الهندي العظيم ماساسيوت Massasiot زعيم شعب وامبانوغ Wampanoag ما فعله الحجاج، ومع ذلك فإنه هو وشعبه جميعا رحبوا بالمستوطنين وأبدوا لهم خالص الود... إنه لم يكن يعرف أنهم بعد أقل من خمسين سنة سوف يبيدون شعب الوامبانوغ وغيره من الشعوب الهندية المجاورة وسوف يقتلونهم جميعا بالبنادق أو بالأمراض. نعم لقد أبادوا طريقتنا في الحياة وقضوا على لغتنا.. فلم يبق منا إلا القليل من الأحياء. وإنني حزين. وهذاليس عيدي»٢٣.

أدى تطبيق تقنيات العمل بالسخرة والتجويع الاجباري والترحيل الجماعي وتحطيم المعنويات إلى شحذ أنياب «العامل الطبيعي» وإلى ما يعرف بالشتات الكبير The Great Dispersal الذي اقتلع عددا كبيرا من الشعوب الهندية من أوطانها وساقها إلى الغرب أو إلى الشمال الكندي فرارا بحياتها وحياة أبنائها من الإبادة الشاملة. وقد كان هذه التدمير سياسة متعمدة سرعان ما اتضحت معالمها مع ما يسمى بحروب الإستقلال. ففي حملة ١٧٧٦ على هنود الشيروكي «حلفاء» البريطانيين تم إحراق المدن الهندية بمن لم يستطع الفرار منها، وأتلفت محاصيل الذرة، وسيق من بقي من الشيروكي إلى الغابات ليفنوا. ولم تمض ثلاث سنوات حتى أصدر جورج واشنطن أوامره إلى الجنرال جون سوليڤان بأن يحيل مساكن هنود الأوروكوا إلى خراب، وأن لا يصغي لنداء السلام حتى تمحى قراهم ومدنهم وآثارهم من وجه الأرض. وبعد أن نفذ الجنرال أوامر واشنطن كتب إليه يبشره بتحويل هذه «المنطقة الجميلة من حديقة بديعة إلى أطلال مهجورة تثير الرعب والمقت». وفي رسالة إلى جيمس دواين السناتور والمفوض السابق للشؤون الهندية فسر جورج واشنطن المفهوم الأميركي للأضرار الهامشية التي ترافق انتشار الحضارة فقال: «إن طرد الهنود من أوطانهم بقوة السلاح لا يختلف عن طرد الوحوش المفترسة من غاباتها»٢٤. هكذا أطلق هنود السينيكا على أبي الجمهورية الأميركية الأعظم جورج واشنطن اسم «هدّام المدن»، فبموجب أوامره المباشرة تم تدمير ٢٨ مدينة من أصل ٣٠ من مدن هنود السينيكا Seneca

وحدهم، من البحيرات الكبرى شمالا Erie حتى نهر الموهوك Mohawk، وفي فترة قياسية لا تزيد على خمس سنوات. وهذا ما فعله أيضا بمدن وقرى الموهوك والأونونداغا Onondaga والكايوغا Cayuga، حتى إن أحد زعماء الأروكوا قال لواشنطن ذات لقاء في عام ١٧٩٢: «عندما يذكر اسمك تلتفت نساؤنا وراءهن مذعورات، وتشحب وجوههن. أما أطفالنا فإنهم يتشبثون بأعناق أمهاتهم من الخوف»٢٥.

ومضى الآباء المؤسسون جميعا على خطى واشنطن، كما بيّن ذلك ريشارد درينون في فصل كامل خصصه لذلك. حتى توماس جفرسون نفسه «رسول الحرية الأميركية» وكاتب وثيقة الاستقلال أمر وزير دفاعه بأن يواجه الهنود الذين يقاومون التوسع الأميركي بالبلطة، وأن لا يضع هذه البلطة حتى يفنيهم أو يسوقهم وراء الميسيسيبي . نعم إنهم قد يقتلون أفرادا منا، لكننا سنفنيهم ونمحو آثارهم من هذه الأرض. إننا مجبرون على قتل هؤلاء الوحوش أو طردهم مع وحوش الغابات إلى الجرود٢٦. وتروي إرنا غنثر في كتابها المثير عن مشاهدات الرحالة والمكتشفين وتجار الفرو في أواخر القرن الثامن عشر كيف دمر المستعمرون صروحا فنية فريدة لا تعوض فتقول « إن إحدى قرى هنود النوتكا Nootka وتسمى Opitstateh كانت تضم مئتي بيت في غاية الإبداع. فهي جميعا مرسومة الجدران والسقوف ومزينة بتماثيل غريبة الأشكال. أما شبابيكها وأبوابها فلها شكل كائنات حية، ولكي تدخلها فإن عليك أن تعبر بابا له شكل الإنسان ورأس أحد الحيوانات. إنها ثمرة أجيال من العمل الفني دُمّرت في لمح البصر وقتل جميع أهلها في مذبحة جماعية قال القائد الذي ارتكبها أنه فعل ما فعل مأمورا وأنه نادم على ما اقترفت يداه٢٧.

|

هناك اليوم أكثر من دليل على أن حصاد ملايين الأرواح بهذا «العامل الطبيعي» لم يكن طبيعيا، وأن الزنابير حاولوا متعمدين، عن سابق نية ومعرفة وإصرار، أن يلووا ذراع «العناية الإلهية» بسياسة العمل بالسخرة والتجويع الاجباري والترحيل الجماعي وتقويض معنويات الضحايا وشن الحرب الجرثومية التي استمرت في زمن «السلم» وزمن الحرب، مع المحترفين ومع الهواة، وبشكل جماعي منظم يمارسها الجيش و«الحلفاء» من الهنود، أو بشكل فردي تمارسها قطعان المستوطنين. أما الإدعاء بأن إبادة ١١٢ مليون إنسان كان مجرد «مأساة مشؤومة غير متعمدة»، و«أضرار هامشية تواكب انتشار الحضارة» وأن هؤلاء الذين نسبوا هذه الإبادة الجماعية الأكبر والأطول في تاريخ الإنسانية إلى العناية الإلهية أو العامل الطبيعي هم أتقياء أبرياء لم تكن لديهم المعرفة العلمية الكافية فهو إدعاء يفتقر إلى البراءة ويتنكر أول ما يتنكر للمعرفة العلمية.

منذ أيام الطاعون الأسود كان الأوروبيون يعرفون هذا السلاح الجرثومي، وكانوا في حروبهم يستخدمون المنجنيق في قذف جثث الموتى بالطاعون أو جيف الحيوانات الموبوءة إلى داخل المدن التي يحاصرونها٢٨. ومنذ السنوات الأولى للحج اعترف الحاكم وليم برادفورد في يومياته بأن الأغطية الملوثة بجراثيم الجدري هي السبب في انتشار هذا الوباء بين الهنود «الذين نفقوا بسرعة كبيرة مثل أغنام موبوءة... فلم يعد هناك أحد يستطيع مساعدة المرضى أو يأتيهم بشربة ماء،

أو يدفن موتاهم»٢٩. وكتب باري هولستون لوبيز في كتابه عن «الذئاب والبشر» أن مستعمرة مساشوستس حظرت على المستوطنين استخدام المسدس في المناسبات غير الضرورية أو في أي لعبة إلا لقتل الهندي أو الذئب. كانوا يصنعون لحما مسموما للذئب وغطاء ملوثا بجراثيم الجدري للهندي، وكانوا يغيرون على وكر الذئب ليقتلوا جراءه كما كانوا يخطفون أطفال الهنود. ولكي يبرروا لك كيف يقتلون جراء الذئاب وأطفال الهنود بطريقة واحدة يحكون لك حكايا عن فظاظة الهنود وعن ذئاب تأكل الخشف حيّا»٣٠. وكان هنود الناراغنستس Narragansetts قد شكّوا منذ عام ١٦٣٣ بأن تكون العناية الإلهية أو «العامل الطبيعي» وراء هذه الحرب الجرثومية التي حصدت أرواح ٧٠٠ إنسان منهم بعد أن تلقوا من الحجاج هدايا ارتابوا في أنها مسمومة بجراثيم الجدري. هكذا تم استحضار المتهم الأول الكابتن جون أولدام بالقوة إلى جزيرة بلوك لمحاكمته أمام مجلس خاص من حكماء الهنود بتهمة القتل الجماعي المتعمد. وبعد أن ثبتت لديهم تهمته حكموا عليه بالإعدام.. وقتلوه٣١. أما الحجاج فأنكروا التهمة وقالوا إنها بلا دليل، ثم إنهم انتقموا لمصرع جون أولدام بإبادة معظم الناراغنستس في عام ١٦٣٧، وحسموا بذلك الصراعَ على المعرفة العلمية بحرب الجراثيم لأكثر من ١٣٠ سنة تفرد فيها «العامل الطبيعي» وحده بتفريغ الأرض وإعدادها لانتشار الحضارة.

في أواخر ما يسمى بالحرب الهندية – الفرنسية ظهرت أول وثيقة دامغة تثبت استخدام الغزاة للسلاح الجرثومي عمدا، وتؤكد أن إبادة الهنود بالسلاح الجرثومي كان سياسة رسمية. ففي سيناريو كلاسيكي منقح لقصة تسميم الزعيم تشيسكياك ومن معه بأنخاب «الصداقة الخالدة» على ضفاف نهر البوتوماك، كتب القائد الإنكليزي العام اللورد جفري إمهرست Jeffrey Amherst في عام ١٧٣٦ أمرا إلى مرؤوسه الكولونيل هنري بوكيه Henry Bouquet يطلب منه أن يجري مفاوضات سلام مع الهنود ويهديهم بطانيات مسمومة بجراثيم الجدري «لاستئصال هذا الجنس اللعين». وقد اشتركت «قوى الحضارة»، في حرب ضارية لإخفاء هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق المشابهة عند اكتشافها في أواخر الثلاثينات، ومايزال المؤمنون بوحدانية الهولوكست إلى الآن يحاولون إثارة الشكوك حولها والتقليل من شأنها واتهامها بأنها من حبك «عقلية المؤامرة» وأنها ستشجع على الكراهية. وكان هوارد پيكهام رئيس الرابطة التاريخية الأميركية الذي اكتشف الوثيقة قد أخفاها وما معها من مرفقات لمدة سبع سنين بحجة «أنها تعطي انطباعا سيئا»، ولم يعترف بوجودها إلا عندما عثر عليها المؤرخ آلن ستيرن بالمصادفة. حتى الكتاب الذي وضعه آلن ستيرن (بالاشتراك مع شقيقه واغنر) بعنوان «تأثير الجدري على مصير هنود أميركا» اختفى من الأسواق ومن معظم المكتبات الجامعية ولم تدخله مكتبة الكونغرس في فهارسها.

طلب اللورد إمهرست من الكابتن بوكيه، وبعبارات صريحة لا تحتمل التأويل أن ينشر مرض الجدري بين القبائل الهندية التي لم تصب به بعد. وأجاب بوكيه لاحقا: سأحاول جهدي أن أسممهم ببعض الأغطية الملوثة التي سأهديها إليهم، وسأتخذ الاحتياطات اللازمة حتى لا أصاب بالمرض.

ولم يخف اللورد فرحه بالفكرة ، لكنه نصح له في رسالة جديدة بأن يستخدم الأغطية المسممة وكل وسيلة ممكنة لاستئصال هذا الجنس اللعين. وببطانيتين وبضعة مناديل تم تلويثها في مستشفى الجدري انتشر الوباء بين أربعة شعوب هندية هي الأوتاوا Otawas والمينغوMingos والمايامي Miamis والليني لوناپيه Lenni Lenâpés وأتى على أكثر من مئة ألف طفل وشيخ وامرأة وشاب منهم٣٢.

ولطالما وُصفت وثيقة إمهرست بأنها «حجر رشيد» الحرب الجرثومية التي كانت من أفتك أسلحة الغزاة لتفريغ القارة الأميركية من أهلها وتحقيق فكرة أميركا: «فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة». لكن الوثيقة لم تكن إلا البداية في الكشف عن أن هذا «العامل الطبيعي» لم يكن إلا مكيدة بالحياة. لقدكشفت عن المركزية العنصرية لفكرة أميركا وأسطورة «الإختيار» وماترتب عليها من سياسات مشحونة بالعنف المميت والتعصب المقدس والرسوبات البدائية المتعجرفة __ أسطورة أربعة قرون لم تتوقف فيها الجريمة الطقسية يوما عن التضحية بالآخر.

هناك وثيقة أخرى تتحدث عن إهداء أغطية مسمومة بجراثيم الجدري لهنود المندان Mandan في فورت كلارك. وقد نقلت هذه الأغطية إلى ضحاياها في ٢٠ يونيو ١٨٣٧ من محجر عسكري لمرضى الجدري في سان لويس على متن قارب بخاري اسمه «القديس بطرس St. Peter» فحصدت كذلك في أقل من سنة واحدة أكثر من مئة ألف٣٣ طفل وشيخ وامرأة وشاب.

بعد حوالي ١٥ سنة كانت كل الولايات المتحدة تتساءل عن أفضل وسيلة للقضاء على هنود كاليفورنيا. فبعدالاستيلاء على هذه الولاية الواسعة الغنية من المكسيك وجدت فكرة أميركا نفسها أمام مهمة جديدة وصفتها إحدى صحف سان فرانسيسكو كما يلي: «إن الهنود هنا جاهزون للذبح ، وللقتل بالبنادق، أو... بالجدري. وهذا مايتم الآن فعلا٣٤». في تلك الفترة كان تسميم الهنود بجراثيم الجدري خطة منظمة تمارسها الدولة وبعض الشركات التجارية المختصة، ويتسلى بها المستوطنون في حفلات تسلية وصفتها مقالة افتتاحية في San Francisco Bulletin بأنها «تستخدم الجراثيم من أجل الإبادة المطلقة لهذا الجنس»٣٥ الهندي اللعين.

مع استحالة استخدام هذه التقنيات «البدائية» المباشرة في العصر الحديث، ابتكرت الولايات المتحدة اسلوبا جديدا للتغلب على التكاثر الخطيرالذي رفع عدد الهنود من ربع مليون في إحصاء سنة ١٩٠٠ إلى ما يقارب المليون في أواخر الستينات. فما تزال ٣ بالمئة من مساحة الولايات المتحدة بين أيدي هؤلاء الهنود، وماتزال هناك ثروات باطنية هائلة لم تحسب الدولة الأميركية حسابها عندما ساقتهم كالقطعان إلى هذه الأراضي القاحلة ليموتوا جوعا، وماتزال «ثروة الأمم» بحاجة إلى «نشر الحضارة»، وهي تستخدم كل الأسلحة المتاحة لاغتصاب هذه الثلاثة بالمئة الباقية من أراضي الهنود.

في منتصف السبعينات اكتشفت الطبيبة الهندية كوني أوري Connie Uri في سجلات المستشفى الذي تعمل فيه في ولاية أوكلاهوما نسبة مرتفعة جدا من عدد النساء اللواتي أخضعن لعمليات التعقير، ولدهشتها فقد تبين لها أن الضحايا كلهن من نساء الهنود، وأنهن أخضعن

لعمليات التعقير بعد يوم أو يومين من وضعهن. ولاحظت أوري أنه خلال شهر تموز/يوليو ١٩٧٤ بلغ عدد اللواتي تم تعقيرهن في هذا المستشفى وحده ٤٨ ضحية سبقته مئات العمليات التي لا تتم عادة إلا في حالات السرطان٣٦. ولتغطية الجريمة عمد المسؤولون إلى ابتزاز الضحايا وفقرهن وحاجتهن إلى العلاج لإجبارهن بأساليب مختلفة على توقيع «موافقة» على أن يصبحن عاقرات. من ذلك مثلا رفض إجراء عمليات الإجهاض أو الولادة إلا بعد الموافقة على استئصال الرحم، أو تهديد الأم بأنها غير مؤهلة لتربية أولادها وأن عليها أن تتخلى عنهم للمؤسسات الرسمية المعنية أو أن توقع على «الموافقة». ومن ذلك اختراع أسباب طبية مختلفة لإخضاعهن لعمليات إضافية بعد الولادة مباشرة دون إعلامهن بأنها عمليات تعقير. وتقول هيلين غرينر في «المجلة الأميركية للصحة العامة» إن التحقيق الذي أجرته بين شعب نافاهو أكد أن ٣٠,٧ بالمئة من نسائهم (وكلهن دون الثلاثين) أخضعن لعمليات تعقير٣٧. أما الدولة فقد أغمضت عينيها عن هذه التقارير إلى أن أثارها رسميا السناتور جيمس أبو رزق، ولم تلّوح بعصاها إلا بعد أن تبين لها أن عددا من نساء البيض يجرين هذه العملية طوعا. وعندها اكتشفت أميركا الرسمية «لا أخلاقية» التعقير، وسنّ الكونغرس قانونا يعاقب من يمارسه. فجأة رأت ذاكرة الزنابير صورتها في المرآة كما رأتها بعد ظهور حالات الجمرة الخبيثة، وامتلأ ليلها بكوابيس «الخطيئة الأصلية» لفكرة أميركا: فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. أكثر من أربعة قرون و«نرسيس» على ضفة هذا النهر يحدق في الماء.. كأنه لا يعرف أنه أعمى.

من المتوحش؟

يعتقد كلاوس كنور أن الإنكليز أكثر القوى الإستعمارية الأوروبية ممارسة وتعمدا للإبادة، وأن هدفهم النهائي في العالم الجديد كما في أوستراليا ونيوزيلاندة وكثير من المناطق التي يجتاحونها هو إفراغ الأرض من أهلها وتملّكها ووضع اليد على ثرواتها٣٨. خلال هذه المسيرة التي بدأت بايرلندا ولم تنته بعد، تحكمت عقدةالاختيار والتفوق بسلوكهم وبنادقهم، واستحوذت على أخلاقهم وعقولهم ثم استعمرتهم بنظام متكامل من الذهان الهذائيParanoiac انتهى بهم إلى تأليه الذات God is an Englishman. وهذا ما أوهمهم بأنهم يملكون حق تقرير الحياة والموت لكل من عداهم، وأنهم أيضا في حِلّ من أي التزام إنساني أو قانوني تجاه الشعوب التي يستعمرونها، لا باعتبار أنها أعراق منحطة وحسب بل لأنها في الغالب مخلوقات متوحشة لا تنتمي للنوع الإنساني أيضاً.

ولم ينج من هذا التصنيف البيولوجي أقرب الناس إليهم، وجيرانهم في الجزيرة، وشركاؤهم في البياض والنضارة. فلطالما لازمت الإيرلنديين صفةُ التوحش wild Irish وقالوا عنهم إنهم «يعبدون الشيطان»، وانهم«أجلاف، عراة، أحلاس الغابات والمستنقعات، يعيشون على نوع من الأعشاب، ويأكلون في المناسبات الخاصة من لحم البشر أو من لحم أمهاتهم اللواتي كانت لهن أذناب طويلة وكنّ متوحشّات يأكلن أطفالهن»٣٩.

والواقع أن التجربة الإنكليزية مع «المتوحشين» الإيرلنديين تكررت مع كل الشعوب التي

اجتاحوها، بدءا من الهنود والعرب وانتهاء باليابانيين والفيتناميين. إن قراءة الإجتياح الإنكليزي لإيرلندا تساعد على وضع معجم سيمفوني لطبقات «الوحشية» التي واجهها الإنكليز في حملاتهم المختلفة لنشر الحضارة، وتفسر الفروقات الإيقاعية المرهفة التي تفرضها طبيعة «المجاهل» على استخدام هذا السلم الموسيقي العرقي. صحيح أن الإنكليز قضوا على نسبة كبيرة من سكان أيرلندا، ونهبوا كل ثروتها «النفطية» بتعرية غاباتها شجرة شجرة، وتركوا فيها سجلا حافلا من المذابح والفظاعات، لكن ذلك لا يخفي براعة الإنكليز في دوزنة هذه الفظاعات وفقا لتصنيفاتهم العرقية. وبدون التقليل من هول ما تعرض له الشعب الإيرلندي فإن «ما ارتكبه الأوروبيون بحق الأوروبيين في حروبهم واجتياحاتهم ــ مقارنة بما ارتكبوه في العالم الجديد ــ لم يكن أكثر من «شجار عائلي» كما يقول فرانز فانون. ففي أيرلندا نفسها حاول الإنكليز خلال حملتهم الاستعمارية عليها أن يميزوا بين «وحشيتين» مختلفتين عرقيا: إحداهما متأصلة في الإيرلنديين الغيليين Gael الأقحاح، والثانية مكتسبة أصابت ما يسمى «الإنكليز القدامىOld English » بحكم معايشتهم الطويلة للإيرلنديين المتوحشين. وقد أحكموا ارتكاب فظاعاتهم وفقا لهذا التصنيف ببراعة لايجاريهم فيها متحضر.

أما سكان العالم الجديد الذين لم يشاركوا الإنكليز في اللون واللسان والأرض والدين فقد كان من المستحيل على نظام الهذيان (بعد أن باركته السماء) أن يساوم على تفوقه العرقي أو يلتزم بحد أدنى من الأخلاق أو المشاعر الإنسانية تجاه ضحاياه. لقد كان من الشروط الأولية اللازمة للإبادة الجماعية التي ارتكبها الإسبان والأنكلو-أميركان ضد الهنود هو التأكيد على لا إنسانيتهم وعلى أنهم بالوراثة كائنات منحطة. وكان الإسبان أكثر تواضعا حين قالوا إن الهنود «عبيد طبيعيون»، ذلك لأنهم لم يكونوا يطمحون إلى أكثر من استعباد الهنود وسرقتهم. أما البريطانيون فكانوا يتطلعون إلى ما هو أسمى من الاستعباد ويطمحون إلى الإستيلاء على الأرض واستبدال أهلها وثقافتها أو ما يسمونه بنشر الحضارة. لهذا ترجموا كتابات العنصريين الإسبان مثل «غونزالو فرناندیس أوڤيدو يي ڤالديس» و«فرانسيسكو لوپيز دوغامارا»، وعقّوا أو تلكأوا في ترجمة المنصفين مثل بارتولومه دو لاسكازاس. وتقول عالمة الإنسانيات مرغريت هدجن إن أول كتاب إنكليزي عن الهنود نشر في عام ١٥١١ «وصفهم بالوحوش التي لا تعقل ولا تفكر وتأكل بعضها، بل إنهم كانوا يأكلون أبناءهم وزوجاتهم» ٤٠. وكان عامة الإنكليز يؤمنون بوجود كائنات نصفها بشر ونصفها وحش. وكالعادة فقد سكنت هذه الكائنات معظم الأعمال الفلسفية الانكليزية والأوروبية في تلك الفترة وشاعت في الأعمال الأدبية. وكان اليسوعي جوزيف فرانسوا لافيتوJoseph François Lafitau في كتابه عن عادات الهنود الأميركيين قد تحدث عن وجود «كائن هندي بدون رأس، لكن له وجها في صدره». وقد أطلق عليه إسما أسطوريا Acephal. لهذا لم يكن مستغربا إيمان عامة الإنكليز في تلك الفترة بأن لكثير من هنود أميركا أظلافا وأشكالا شيطانية. وهي أشكال نعثر عليها في كتابات معظم أنبياء الإستعمار الأوائل الذين اختلط عليهم شكل الكنعاني التاريخي الملعون بشكل الوحش الهندي المنحط في صورة أوڤيدية

ليس لها وجود إلا في مخيلاتهم . وكان أوليفر هولمز وهو من أشهر أطباء عصره قد لاحظ في عام ١٨٥٥ أن إبادة الهنود هو الحل الضروري للحيلولة دون تلوث العرق الأبيض، وأن اصطيادهم اصطياد الوحوش في الغابات مهمة أخلاقية لازمة لكي يبقى الإنسان فعلا على صورة الله٤١.

هكذا بدأت دعوات الإبادة الشاملة تعلو عندما لم يكن في كل الشمال الأميركي سوى ألفي إنكليزي.

ثم ازدادت هذه الدعوة حدة وجنونا حين تأكد الإنكليزأن الهنود قد يرحبون بهم ضيوفا ويكرمونهم بما يكفيهم من الأرض والرزق ويعيشون معهم بسلام لكنهم لن يتنازلوا طوعا عن أراضيهم، ولن يتقبلوا فكرة السخرة والاستعباد. وكانت كل بادرة لمقاومة هذا الجشع والتعصب المقدس برهانا إضافيا على صدق أسطورة أميركا وعلى صدق الدعوى بأن الهنود متوحشون عدوانيون لا تنفع معهم إلا الإبادة. إن التسامح مع الشر ليس إلا تشجيعا للشرير، وليس هناك خطيئة أعظم من هذا.

ومع تقدم الزمن صارت شيطانية الهندي الأحمر بديهية لا تحتاج إلى دليل مثلما أن إنكليزية الله وتفوق شعبه من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل. لقد سكنت شيطانية الهنود أحلام الملائكة حتى إن المرأة ميرسي شورت Mercy Short التي زعمت أن الشيطان تلبّسها وصفته على شكل هندي له أظلاف شيطانية. إن هذا الشيطان الهندي هو الكابوس الذي يقض مضجع الزنابير.

قبل مذبحة «ووندد ني Wounded Knee» الشهيرة بأيام كتب فرانك باوم في صحيفته The Aberdeem Saturday Pioneer، ولم تكن عبقريته القصصية قد تفتحت بعد، يدعو إلى الإبادة الشاملة لمن تبقى من الهنود: «إن أصحاب البشرة الحمراء قد أبيدوا، ولم يبق منهم إلا مجموعة صغيرة من الكلاب الهجينة التي تعض اليد التي تطعمها ولا تتوقف عن النباح. أما البيض فإنهم بحكم الغلبة وبقضاء الحضارة أسياد القارة الأميركية، وإن أفضل أمن لمستوطنات الثغور يجب أن يتحقق بالإبادة الكاملة لهذه البقية الباقية من الهنود.. إن موت هؤلاء الأشقياء خير لهم من الحياة»٤٢. وكانت هذه البارانويا العنصرية هي التعبير الصادق عن مزاج الزنابير في نهاية القرن التاسع عشر. فبعد أيام قليلة ارتكبوا مذبحة «ووندد ني» التي قتل فيها المئات من رجال لاكوتا ونسائهم وأطفالهم بالقصف العنيف. أما الناجون فقد تعقّبوهم وقتلوهم واحداً فواحداً لا لشيء سوى أن بشرتهم حمراء ودمهم هندي وأرضهم كنعانية طيبة. وكتب شاهد عيان، وهو طبيب أديب نصف هندي يدعى شارل ايستمن: «على بعد ثلاثة أميال من مكان المذبحة وجدنا جثة امرأة مدفونة تحت الثلج. وانطلاقا من تلك النقطة تناثرت الجثث على طول الطريق وكأنها طوردت واصطيدت وذبحت بعزم وتصميم فيما كانت تحاول أن تنجو بأرواحها. بعض من معنا اكتشف بعض أهله أو أصدقائه بين القتلى، وكان هناك ندب ونواح يملأ الأرض. وحين وصلنا إلى حيث كان المخيم الهندي وجدنا بين بقايا الخيام والأمتعة المحترقة جثثا متجمدة تتلاصق هنا في صفوف أو تتراكم هناك فوق بعضها في أكوام... ولم استطع أن أحتفظ برباطة جأشي بسهولة

أمام هذا المشهد الذي أتلف كل أعصابي وأمام ذلك الحزن العميق الذي طغى على كل من معي من الرفاق بين من يجهش في بكائه أو يتلو نشيد موته»٤٣.

ويضيف جيمس موني: «تحت ركام الثلج، كان هناك نساء على قيد الحياة، لكنهم تركوهن للموت البطيء، وكذلك حال الأطفال الرضع المقمطين والمرميين إلى جانب أمهاتهم... كانت جثث النساء متناثرة فوق محيط القرية. وتحت علم الهدنة كانت هناك امرأة صريعة ومعها طفلها. لم يكن الطفل يعرف أن أمه ميتة، ولهذا فقد كان يرضع من ثديها. وبعد أن قتل معظم من في القرية أعلن الجنود أنهم يضمنون سلامة الجرحى أو كل من بقي على قيد الحياة إذا ظهروا. وخرج بعض الأطفال من مخابئهم، لكن الجنود أحاطوا بهم وذبحوهم. لقد كان واضحا أن تعمد قتل الأطفال والنساء هو لجعل مستقبل الهنود مستحيلا».٤٤.

في اليوم الرابع للمذبحة كتب باوم مزهوا بنشوة الانتصار:« لقد فعلنا حسنا. ويجب علينا أن نتابع المسيرة لحماية حضارتنا... إن علينا أن نقطع دابر هذه المخلوقات الوحشية ونمحو ذكرها من على وجه الأرض»٤٥.

إن مقتل مئة هندي أو حرق قرية هندية كاملة بمن فيها قد تحيله هوليوود إلى مناسبة للضحك والتسلية فيما هي تنسج من تلويح الهندي بيده في وجه الرجل الأبيض دراما مخيفة تجعلها عنوانا للعنف والوحشية التي تؤهله للموت. (وصورة الضحية على الغالب فتاة جميلة شقراء مذعورة لا تختلف عن تلك التي يخطفها كنغ كونغ، وإن كانت هوليوود تضفي على كنغ كونغ بعض المشاعر الإنسانية التي تضن بها على الهندي). إنهم قبل أن يسلبوا الهنود جهودهم في الحضارة الإنسانية ويعرّوهم من إنسانيتهم أسقطوا عليهم أشنع فظاعاتهم كالعنف وسلخ فروة الرأس والتمثيل بالجثث وغير ذلك مما يعتبر لازما لاعتبار إبادة ١١٢ مليون إنسان من «الأضرار الهامشية» التي تواكب انتشار الحضارة.

كل شهادات المستعمرين الأوائل كانت تسخر من مفهوم الحرب عند الهنود لافتقارها إلى عنصرين أساسيين في الثقافة الحربية الكلاسيكية: القتل، والتوسع في الأرض، ولأنها أشبه بمهرجانات لاستعراض الشجاعة والبطولة والمهارات وليس لاستعراض الجثث. أول ما لاحظه المستعمرون أن حروب الهنود «كانت للتسلية والرياضة البدنية وليست لإخضاع الخصم. فقد يتحاربون سبع سنين دون أن يسقط بينهم سبعة قتلى. إنهم يقاتلون في السهول بالقفز والرقص، وعندما يجرح واحد منهم يتوقف الطرفان عن القتال وينكب المقاتلون جميعا على إسعاف الجريح. »٤٦. ولا شك في أن هذه الثقافة الحربية المختلفة التي لا تؤمن بالعنف المنظم كانت مقتلا من مقاتل الطالبيين الهنود وحجر زاوية في حرب الإبادة التي تنتمي إلى ثقافة وأخلاق مختلفتين تماما. عندما أعلن كورتيس للهنود أنه جاء إليهم في مهمة سلمية صدقوه ورحبوا بهذا لغازي الدموي وفتحوا له دورهم وقصورهم ومناجم ذهبهم. فمن قواعد الحرب بين الهنود أن إعلان

السلام لا يعني شيئا غير السلام. ومن هذا المنطق اطمأن الهنود إلى أن كورتيس جاء فعلا في مهمة سلام. إنهم لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا يعلن الأوروبي شيئا ولايتقيد به، ولماذا يقول قولا ولا يفعله، ولماذا يوقع اتفاقية ثم يخرقها في أقرب فرصة ممكنة. ولعل هذا ما تعبر عنه هذه الكلمة البريئة التي ألقاها أحد هنود لونابه Lenape أمام أحد المستعمرين الإنكليز: «إننا نريد أن نعيش معكم بسلام كما عشنا مع غيركم من الشعوب. لو أننا فكرنا في أن نحاربكم يوما فإننا سنعلمكم بذلك سلفا، وسنبين لكم الأسباب التي نريد أن نحاربكم من أجلها. فإذا أبديتم ما يقنعنا أو يعوضنا عن الأضرار التي سنحاربكم من أجلها فإننا لن نحاربكم. وإذا أردتم أن تحاربونا يوما فنرجو أن تعلمونا بذلك وتبينوا لنا الأسباب، فإذا لم نقنعكم أو نعوضكم عن الأضرار التي ستحاربون من أجلها فلكم الحق في محاربتنا..وإلا فليس لكم أن تحاربونا»٤٧.

لم يستطع الهندي أن يفهم دوافع الحرب التي يشنها الأوروبي والعنف المميت الذي يمارسه والفظاعات التي تواكب حروبه. لم يستطع أن يفك ألغاز تقديسه للملكية وهوسه باغتصابها من الآخرين. إن نظام قيمه لا يُعنى بالتراكم المادي ولا تستهويه «ثروة الأمم» التي ألهبت خيال الإنكليزي وبندقيته، وجعلت الملكية في عيني مارتن لوثر معيارا للتفريق بين الإنسان والحيوان! هلاّ رأى نبي وول ستريت بأي ماء تسيج الضباع أطيانها؟ الحرب الهندية على ندرتها لا تعلن إلا بسبب إهانة شخصية أو حوادث فردية. ولطالما أمكن تفاديها بالتعويض أو الاعتذار أو الدية. أبدا لم يزعم الهنود احتكار الحقيقة المطلقة؛ هذا الوباء المقدس الذي ألهب طقس العنف في أتباع كل الديانات التوحيدية. أبدا لم يعرف تاريخ الهنود سماء مركنتلية تتاجر بالعبيد وتعد هذا بأرض ذاك. أبدا لم يكن الغزو أو الاجتياح أو الاحتلال من أخلاقهم. «كل هذا غريب عن ثقافتهم»٤٨.

في دراسة ميدانية لهنود السهول الذين صورتهم هوليوود مثلا أعلى للعنف والعدوان يقول الأنثروبولوجي جورج غرينل:« بين هنود السهول الذين أعرفهم جيدا يعتبر لمس العدو من أشنع أنواع التعبير عن العدوانية. أن تقوم بضرب العدو دون أن تؤذيه عمل من أعمال الفروسية. إن من مظاهر الشجاعة وتقاليدها أن يمضي الرجل إلى الحرب وليس في يده سلاح يؤذي عدوه من بعيد، فحمل الرمح أكثر شجاعة وفروسية من حمل السهام، وحمل البلطة القصيرة أولى من حمل الرمح. أما أعظم مظاهر الشجاعة فأن تسعى إلى الهيجا بدون سلاح»٤٩. ويروي ستانلي دايموند في دراسته المقارنة عن «البدائية والحضارة» أن قتل الإنسان عند الهنود كان حدثا تاريخيا، وأن حروبهم كانت تشبه الأعمال المسرحية. ومهما كانت طبيعة هذا الحدث التاريخي الذي يستوجب قتل الإنسان فإنه كان يخضع لطقس مشخصن شديد التعقيد. لقد كانوا يقدسون حياة النساء والأطفال ويعتبرون الإعتداء عليها وصمة عار في جبين المحارب. وهذا ما جعل حرب الإبادة الإنكليزية نزهة في رياض الطبيعة الهندية المسالمة.٥٠

خلال عودة القديسين من حملة إبادة هنود الناراغنستس في عام ١٦٣٧ بقيادة الكابتن جون انديكوت كانوا في أوج النشوة فأرادوا التحرش بهنود البيكو والتسلي بقتلهم. ويروي شاهد

عيان أن البيكو «عندما رأونا على شواطئهم، أسرعوا للترحيب بنا، وهم يهتفون: أهلا بالإنكليز، أهلا بالإنكليز. ولم يكن يخطر ببالهم ما نعدّه لهم. وعمّ الترحيب والتهليل ومظاهر الفرح بوجودنا في كل مكان حتى وصلنا إلى نهر پكويت Pequeat. وهناك، مع سقوط أول قتلاهم، أدرك الهنود باستغراب شديد سبب وجودنا فهجروا قراهم وفروا إلى الغابات القريبة. ونزل الإحباط بالجنود فراحوا يحرقون القرى والحقول ويتلفون المحاصيل»٥١. وما أن عاد الجنود إلى مستعمرتهم حتى ظهر الهنود من مخابئهم ونظموا أنفسهم وهاجموا حصن سايبروكSaybrook فاقتحموه، ولكن دون أن يقتلوا أو يجرحوا أحدا. وظنوا أن هذه «البطولة الاستعراضية» كافية لاسترداد كرامتهم، ولإقناع المستعمرين بالتعايش السلمي. وبكل ما أعطاهم الله من براءة سأل هنود البيكو قائد الحصن ليون غاردينر عن إمكانية هذا التعايش السلمي، فأجابهم: «لقد دمرتم بعدوانكم هذا كل إمكانية للسلام بيننا». وسأله الهنود أيضا ما إذا كان الإنكليز سيقتلون الأطفال والنساء، فأجابهم «ستعرفون ذلك في حينه».

بعد أيام قليلة قاد الكابتن جون مايسون قبيل الفجر جيشا من الميليشيا قسمه إلى فرقتين تولى قيادة إحداها بينما تولى جون أندرهيل الفرقة الثانية. وتحت جنح الظلام هاجموا الهنود النائمين من جبهتين. وكان ذلك بتعبير جون مايسون «آخر نوم لهم». ويصف مايسون تلك الليلة بقوله: «لقد أنزل الرب في قلوب الهنود رعبا شديدا، فحاولوا أن يطيروا بين أسلحتنا ويقفزوا في اللهب الذي التهم كثيرا منهم. كان الرب يضحك من أعدائه وأعداء شعبه المختار.. يضحك حتى الاستهزاء والاحتقار، ويجعل منهم وقودا لهذا الفرن الذي تحولت إليه قريتهم. هكذا ينتقم الله منهم ويملأ الأرض بجثثهم...ليعطينا أرضهم»٥٢. كان الجنود يقتلون الجرحى من الرجال والنساء والأطفال ويشعلون النار في البيوت ويحرقون الهنود في أكواخهم أحياء أو موتى، وكأنهم في حفلة شواء ،«باربكيو»، بتعبير كوتون ماذر٥٣ أحد أقدس أنبياء الاستعمار الإنكليزي للعالم الجديد.

استمرت حفلات الباربكيو طويلا قبل أن يتعلم الهنود أن البراءة مع شعب الله الإنكليزي انتحار، وأن الدفاع عن أنفسهم يحتاج إلى معرفة طبيعة الحرب لدى أعدائهم وإلى عدم قياس نظام قيم وأخلاق الإنكليز إلى نظام قيمهم وأخلاقهم. فالانكيزي لا يحب التمثيل المسرحي في ساحة القتال، وإذا أراد أن يرقص فإنه ينتظر حتى ينقشع غبار المعركة ليرقص على أشلاء خصمه. لقد مضى وقت طويل قبل أن يتعلم الهنود كما يقول جننغز في «اجتياح أميركا» «أن وعد الإنكليزي مهما كان صادقا مضمونا سوف يخلفه بمجرد أن يتعارض مع مصلحته التي لا تعرف حدودا، وأن أسلوب الحرب الإنكليزية لا تعرف معنى للرحمة أو للشرف أو للمواثيق أو للتردد... ولقد حفظ الهنود ذلك الدرس غيبا، ولكن حين لا تنفع الدروس والعبر»٥٤.

|

تعرضت الثقافة الهندية المسالمة لحملة تشويه لازمت حرب الإبادة وكانت سلاحا من أسلحتها. لم يكتف التاريخ المنتصر بأن أطلق على غزواته واجتياحاته وحملاته العسكرية اسم «حروب

الهنود » بل إنه أسقط كل عنفه وفظاعاته الدموية على الهنود بدءا من سلخ فروة الرأس وانتهاء بالتمثيل بالجثث.

«ارتكب الإنكليز جريمة سلخ فروة الرأس في معظم حروبهم»٥٥. وعلى نقيض ما تروج له هوليوود والرسميون والإعلاميون وأكاديميو التاريخ المنتصر «فإن الرجل الأبيض هو الذي خلق عادة السلخ [في العالم الجديد] وإن أكثر جرائمها من صنع يديه»٥٦. وكانت عادة سلخ فروة الرأس متبعة أيام الحروب الإنكليزية الإيرلندية، ففي أواخر القرن السادس عشر لجأ القائد الإنكليزي همفري جلبرت إلى قطع الرؤوس وسلخ فروتها لإثارة الذعر في نفوس الإيرلنديين وقمع انتفاضتهم (١٥٦٧ــ ١٥٧٠) في فظاعات أقلها زرع جانبي الطريق إلى مقر زعيم الإنتفاضة بالرؤوس المقطوعة٥٧. وقبل أن يتوجه إلى العالم الجديد، يحاول ملكا، خلع عليه البلاط لقب «فارس» اعترافا ببلائه في نشر الحضارة. ومع أنه عاد خائبا ولم يفلح في تأسيس مستعمرته فإن مسيرته ظلت تتابع نشاطها وتمضي على خطاه إلى يومنا هذا، حتى إن الجنرال الفرد سولي أعاد هذا المشهد بكل تفاصيله بعد حوالي ثلاثة قرون عندما أمرَ بنصب الرؤوس المقطوعة لهنود اللاكوتا على عصيّ، كل رأس على عصا، وزرَعَها على جانبي الطريق المؤدية إلى مقره العام٥٨ للاستئناس وفرض الهيبة.

ولقطف الرؤوس وظائف أخرى غير الزينة أو فرض الهيبة كما كان الحال في أيرلندا والمستعمرات الأميركية الأولى. لقد استخدمت في البداية ــ بدلا عن آلات الحساب الخرزية ــ للتأكد من عدد القتلى، ثم سرعان ما اكتشفت أخلاق السوق فيها وسيلة للرزق فاعتمدتها وطورتها وجعلت منها صناعة مستقلة. ويقول جننغز في «اجتياح أميركا» إن السلطات الاستعمارية رصدت مكافأة لمن يقتل هنديا ويأتي برأسه، ثم اكتفت بسلخ فروة الرأس إلا في بعض المناسبات التي تريد فيها التأكد من هوية الضحية٥٩. ولعل أقدم مكافأة إنكليزية على «فروة الرأس» بدلا من كامل الجمجمة تعود إلى عام ١٦٩٤. في ١٢ أيلول/ سبتمبر من ذلك العام رصدت المحكمة العامة في مستعمرة ماساشوستس مكافآت مختلفة لكل من يأتي بفروة رأس هندي مهما كان عمره أو جنسه. وتختلف هذه المكافآت بحسب مقام الصياد: خمسون جنيها للمستوطن العادي ، وعشرون جنيها لرجل الميليشيا، وعشرة جنيهات للجندي. ولم تمض عشرون سنة حتى رصدت كل المستعمرات الإنكليزية جوائز مماثلة. ثم تغيرت «التعرفة» في عام ١٧٠٤ فأصبحت مئة جنيه لكل فروة رأس. ومن المفارقات أن المكافأة المتواضعة التي رصدت لفروة رأس الفرنسي في عام ١٦٩٦، وهي ستة جنيهات فقط، لم تتغير في التعرفة الجديدة.، بل ظلت في أسفل القائمة، وظل الفرنسي الأبيض ــ برغم عداوته الدموية للانكليزي ــ آخر المطلوبين.

كانت مكافأة المئة جنيه تعادل أربعة أضعاف متوسط الدخل السنوي للمزارع في مستعمرات نيو إنكلند. وكان بإمكان أي مستوطن عجوز أن يصطاد طفلين وثلاث نساء هنديات سنويا ويتنعم بما لم يتنعم به جلالة الملك جيمس. هذا ما جعل صيد الرؤوس الهندية وسلخها أسرع طريقة لبناء الثروة، وسرعان ما وجدت «ثروة الأمم» المعادلة الإقتصادية المناسبة لاستثمار بونانزا

الأرواح تجاريا. لقد اكتشف شعب الله نفطه في عروق الهنود.

في فالموث، أو ما يعرف اليوم ببورتلاند أسس توماس سميث إحدى هذه الشركات التي تستأجر فرقة من المغامرين لقتل الهنود والعودة برؤوسهم أو فرواتها. كان سميث يزود الفرقة بالمعدات والذخائر ويتقاضى ثلث المكافأة. وتقول صفحة من يومياته إن حصته من مكافآت ذلك اليوم الكاسد (١٨ حزيران/ يونيو١٧٥٧) بلغت ١٦٥ جنيها ٦٠. كان الصيادون يتعهدون قرى معينة، يمشطونها قرية قرية ولا يبقون فيها فروة واحدة. حتى إن القرى المكسيكية وراء الحدود صارت هدفا للصيادين. ولأن فروة رأس الهندي «الحليف» لا تختلف عن فروة الهندي العدو، ولأن صيدها أسهل، ولأن أخلاق السوق لا تعنيها هذه التفاصيل التافهة فقد ركزت هذه التجارة جهودها على صيد رؤوس الحلفاء، ولا سيما منهم أولئك الذين تطهرت أرواحهم واستعاروا لأنفسهم أسماء القديسين. ويروي أكستل في بحثه عن «السلخ» أن فرقة من أربعة رجال من مستوطني نيوجرسي زعموا أنهم يصطادون هنود فيلادلفيا، لكنه في ليلة ١٢ نيسان/أبريل ١٧٥٦ تبين أن كل ضحاياهم كانوا من هنود المنطقة الذين أنقذ المستعمرون أرواحهم واستخدموهم في أعمال السخرة. في منتصف تلك الليلة اقتحم المستوطنون بيت عائلة هندية آمنت فأمنت ونامت قريرة العين. أما الرجل «جورج» فتمكن من الهرب، لكن الزوجة «كاثرين» تلقت بضع طلقات في صدرها ثم قطعت رأسها بالفأس. الطفلة ذات الأحد عشر ربيعا تهشم رأسها بالبلطة وتلقت عدة طعنات في كتفها. وأما رأس الطفل الذي لم يبلغ السنة فما كان على الله الإنكليزي بعسير٦١. ويروي بيتر شمالز في كتابه عن هنود أوجيبوا كيف أن الإخوة في الإيمان لم تكن أفضل من التحالف، وكيف إن الذين طلبوا خلاص أرواحهم في الآخرة وطمعوا في خلاص أجسادهم في الدنيا صاروا فريسة سهلة. ففي إحدى قرى دولاوير حاصرت كتيبة مسلحة بقيادة داڤيد وليامس أفرادا من الهنود المواڤيين . وتمضي الشهادة فتقول إن الجنود طمأنوهم إلى أنهم جاءوا لمرافقتهم إلى حيث يصلّون ويجدون طعامهم بأمان. وقالوا لهم إن هذه المهمة النبيلة لا تحتاج إلى حمل السلاح. ووافق الهنود مطمئنين إلى أخوة الإيمان. ثم إنهم أسرعوا إلى إحضار من تبقى من أهلهم وذويهم في البيوت حتى لا تفوتهم بركات الصلاة. ولم يكن لدى الهنود وقت ليكتشفوا الخدعة فقد عاجلهم الجنود بالقتل وحصدوا في تلك المذبحة رؤوس ٢٩ رجلا و٢٧ امرأة و٣٤ طفلا٦٢.

ثم ازدهرت هذه التجارة مع الحرب الإنكليزية الفرنسية في العالم الجديد، ومع تهافت الطرفين على شراء «الحلفاء» وتنافسهما على دفع مكافآت مرتفعة لقاء فروات رؤوس أعدائهم. وفيما كانت الشركات التجارية الإنكليزية والفرنسية توجه نشاطها الأكبر لصيد رؤوس الهنود «الحلفاء» قبل الأعداء كانت الوعود السياسية والإقتصادية التي أمطرها البيض على الهنود قد أوقعت بعضهم في الفخ. لم يتصور الهنود الذين أغرتهم الأطماع والوعود وقصر النظر أنهم سيموتون بنفس الطريقة عندما يدرك البيض غايتهم منهم. لقد أغروهم بارتكاب هذه الفظاعات التي كانوا فيها أكبر الخاسرين. فخلال حرب السنوات الست (١٧٥٤ــ ١٧٦٠) كان الإنكليز والفرنسيون

هم الذين يديرون هذا المسلخ الذي لم يذبح فيه إلا الخراف.

واضطر الانكليز إلى رفع مكافأة السلخ في السنة الثالثة للحرب بعد أن ألحق الفرنسيون هزيمة ساحقة بالجنرال الإنكليزي إدوارد برادوك وبحلفائه من الهنود. هكذا استغنى كثير من المستوطنين عن البحث عن الذهب ليلتحقوا بركب «العامل الطبيعي»، وصاروا يتنافسون فيما بينهم ويتباهون بسرعة الصيد وكثرة الغنائم. ويروي المغامر لويس وتزل Lewis Wetzel أن غنيمته من فروات رؤوس الهنود كانت لا تقل عن أربعين فروة في الطلعة الواحدة. ويعتبر «وتزل»، وهو ابن مستوطنين مغامرين، من أبطال التاريخ الأميركي وما يعرف بعمالقة الثغور. جُرح صغيرا عندما كان أبواه يحاولان الاستيلاء على أراض هندية بالقوة. في الرابعة عشرة دشّن أول ضحاياه ونذر نفسه لقتل الهنود. لهذا لم يتزوج ولم يضع لحظة من حياته في عمل آخر. من بطولاته قتلُ زعيمين هنديين فيما كانا يجريان مفاوضات السلام مع المستعمرين، الأول زعيم الدولاوير عام ١٨٧١، والثاني زعيم السينيكا عام ١٨٧٩, ٦٣ وبدءا من «وتزل» صار قطع رأس الهندي وسلخ فروة رأسه من الرياضات الإنكليزية المحببة، بل كان الكثير منهم يتباهى بأن ملابس صيده وأحذيته مصنوعة من جلود الهنود. ثم تغير الحال بعد عقد من الزمان عندما بدأ الإنكليز الملكيون والإنكليز الثوار يسلخون رؤوس بعضهم فيما يدّعي كل منهم وصلا بالعناية الإلهية وينسب إليها جرائمه وفظائعه. وبالطبع فقد تنازع الطرفان على صفة الإختيار والتفضيل وتمثيل «شعب الله»، لكنهم جميعا ظلوا مخلصين لتقليد السلخ والتمثيل بالجثث طوال فترة ما يسمى بحرب الاستقلال. كانوا ينظمون لذلك حفلات خاصة ويدعون إليها عليّة القوم للتفرج والاستمتاع الشهواني بهذه المشاهد المثيرة حتى إن الكولونيل جورج روجرز كلارك في حفلة أقامها لسلخ ١٦ من الأسرى الأحياء أثناء حصاره الاحتفالي لڤانسين Vincennes طلب من الجزارين أن يتمهلوا في الأداء، وأن يعطوا كل تفصيل حقه لتستمتع الحامية كلها بالمشاهد. وقد وصف الكولونيل هنري هاملتون في يومياته بهجة الحضور بأنهم خرجوا يختالون بنشوة انتصارهم ورائحة دم الضحايا تعبق منهم٦٤. ومايزال كلارك إلى الآن رمزا وطنيا أميركيا وبطلا تاريخيا، و«ما يزال من ملهمي القوات الخاصة في الجيش الأميركي»٦٥.

وفي كولورادو تولت الشركات الخاصة، بتعاقد ضمني مع الدولة، مهمة الذبح والسلخ والقضاء على الوجود الهندي. أما في كاليفورنيا فقد تأخرت حفلات السلخ قليلا لكنها سرعان ما اتبعت خطوات الولايات الأخرى، ففي حادثة واحدة (أيار/مايو ١٨٥٢) اشترك فيها «شريف» ويڤرڤيل هوجم ١٤٨ هنديا من الرعاة فأصبحوا أثرا بعد عين. والغريب أن قطع الرؤوس صار خبرا عاديا في الصحافة البيضاء التي لم تعد تجد حرجا في الحديث عن أن هدف هذه المجازر هو «الإبادة» وأن القتلة الذين ارتكبوا هذه البطولات تلقوا مكافآت من الحكومة بعد أن أبرزوا فروات رؤوس ضحاياهم٦٦.

مع تأسيس الجيش الأميركي أصبح السلخ والتمثيل بالجثث تقليدا مؤسساتيا رسميا. فعند استعراض الجنود أمام وليم هاريسون (الرئيس الأميركي لاحقا) بعد انتصار ١٨١١ على الهنود

تم التمثيل ببعض الضحايا، ثم جاء دور الزعيم تيكومسهTecumseh . وهنا تهافت صيادو التذكارات على انتهاب ما يستطيعون من جلد الزعيم التاريخي أو فروة رأسه. ويروي جون سغدن Hohn Sugden في كتابه عن تيكومسه كيف شرط الجنود المنتشون جلد الزعيم من ظهره إلى فخذه، وكيف إن أحدهم قصّ قطعة من الجلد شرائط رفيعة لربط موسى الحلاقة، وكيف اقتتل الآخرون على اقتسام فروة رأسه حتى إن بعضهم لم يحصل على قطعة أكبر من السِنت (قطعة نقد معدنية لا يتجاوز قطرها السنتمتر) مزينة بخصلة من شعر تيكومسه. وعندما أجريت مقابلة مع أحد هؤلاء المحظوظين في عام ١٨٨٦ (أي بعد ٧٥ سنة) تحدث عن تلك المناسبة التاريخية بافتخار وهو يحمل بين أصبعيه تذكاره البطولي٦٧. وكان الرئيس أندرو جاكسون الذي تزين صورته ورقة العشرين دولارا من عشاق التمثيل بالجثث، وكان يأمر بحساب عدد قتلاه بإحصاء أنوفهم المجدوعة أو آذانهم المقطوعة، وقد رعى بنفسه حفلة تمثيل بجثث ٨٠٠ هندي يتقدمهم زعيمهم مسكوجي (رد ستيكس). ففي ٢٧ آذار/مارس ١٨١٤، كما يروي داڤيد ستانارد، احتفل الرئيس جاكسون بانتصاره على هنود الكريك وتولى جنوده التمثيل بجثث الضحايا من الأطفال والنساء والرجال، فقطعوا أنوفهم لإحصاء عددهم وسلخوا جلودهم لدبغها واستخدامها في صناعة أعنّة مجدولة للخيول٦٨.

بعد مذبحة ساند كريك التي ذهب ضحيتها أكثر من ٨٠٠ هندي أعزل اضطر الكونغرس إلى إجراء تحقيق في الفظاعات التي ارتكبها الجنود وقائدهم جون شڤنغتون John Chivington. ويعتبر شفنغتون اليوم من أعظم أبطال التاريخ الأميركي، وهناك الآن أكثر من مدينة وموقع تاريخي تخليدا لذكره ولشعاره الشهير: «اقتلوا [الهنود] واسلخوا جلودهم. لا تتركوا صغيرا ولا كبيرا، فالقمل لا يفقس إلا من بيوض القمل». ولعل هذه هي العبارة التي ألهمت هملر تشبيه ما جرى في معسكرات الإبادة النازية بأنه «تنظيف قمل». وكانت الحكومة قد أعلمت الكولونيل شڤنغتون بأن القرية مسالمة، وأن معظم رجالها خرجوا لصيد الجواميس، لكن الكولونيل قال: «حسنا. إنني متشوق للخوض في الدم»٦٩. وقد تحقق له ما يصبو إليه. فمع أول خيوط الفجر زحف رجاله إلى القرية. وكان فيها رجلان من البيض حاولا إعلام الجنود بأن القرية مسالمة، لكنهما جوبها بإطلاق النار. ثم إن الزعيم بلاك كتل رفع العلم الأبيض فوق سارية أحد البيوت كما رفع علما أميركيا كان قد تلقاه من مفوض الشؤون الهندية. وراح يطمئن أهل القرية ويهدىء روعهم قائلا: لا تخافوا .. لا تخافوا، نحن في سلام مع البيض! وسرعان ما بدأ الجنود بإطلاق النار على أهل القرية المتراكضين في كل الإتجاهات بينما أعطى شڤنغتون أوامره بالقصف المدفعي، ومطاردة الهاربين. ويقول روبرت بنت Robert Bent أحد مساعدي شڤنجتون في شهادته أمام الكونغرس: «بعد القصف، حاول رجال القرية أن يجمعوا الأطفال والنساء ويحيطوا بهم لحمايتهم. ولقد شاهدت خمس نساء مختبئات تحت مقعد طويل. وعندما وصل الجنود إليهن بدأن يتوسلن ويطلبن الرحمة لكن الجنود قتلوهن جميعا. وكان هناك أيضا ثلاثون أو أربعون امرأة متكومات فوق بعضهن في حفرة، وقد أرسلن الينا طفلة في السادسة تحمل راية بيضاء مربوطة

على عصا، لكنها لم تتقدم بضع خطوات حتى أطلقنا عليها النار وقتلناها، ثم قتلنا النساء اللواتي لم يبدين أية مقاومة. ثم إنني رأيتهن بعد ذلك مسلوخات الرأس، بينما كانت إحداهن مبقورة البطن وجنينها في بطنها واضح للعين. وأخبرني الكابتن شاول أنه رأى ما رأيت، ورأى مثلي عددا كبيرا من الأطفال بين أيدي أمهاتهم المذبوحات». ويقول شاهد آخر هو الجندي آشبري بيرد Ashbury Bird أن «عدد الضحايا يتراوح بين ٤٠٠ و٥٠٠، وأنهم جميعا تعرضوا لسلخ فروات رؤوسهم. لقد رأيت امرأة تَعَرّض فرجُها للتمثيل به، كما شاهدت جثثا مقطعة تقطيعا فظيعا وعددا من الجماجم المحطمة. وإنني لعلى ثقة بأنها تحطمت بعد موت أصحابها بإطلاق النار عليهم كما هو واضح، [وهذا ما يشهد عليه أيضا السيرجنت لوسيان پالمر Lucien Palmer]. إنني لم أر قتيلا واحدا لم يسلخ رأسه أو رأسها. لقد رأيت كذلك أصابع مقطوعة للسطو على الخواتم. كما رأيت عددا من الجثث وقد قطعت أعضاؤها التناسلية»٧٠. وتقول شهادة عاموس ميلكشAmos C. Milksch : «رأيت طفلا ما يزال حيا بين الجثث المرمية في الخندق. ورأيت جنديا من الفرقة الثالثة يستل مسدسه ويطلق النار على رأس الطفل. رأيت ضحايا مقطّعة الأصابع للسطو على خواتمها، ومقطعة الآذان للسطو على زينتها، ورأيت عددا من الجنود ينبشون جثثا تم دفنها ليلا، وذلك ليسلخوها وليأخذوا زينتها. ورأيت امرأة هندية مهشمة الرأس. وفي الصباح التالي، بعد أن تيبست الجثث، بدأ الجنود بسحب جثث النساء و«فتحهن» بطريقة مشينة»٧١. وشهد داڤيد لودرباك David Laouderback أحد الفرسان أن «جثث النساء والأطفال تم التمثيل بها بطريقة مخيفة. لقد رأيت ثمانية منها فقط، ولم أجد في نفسي الشجاعة لرؤية المزيد فقد كانت شديد التقطيع، وكانت مسلوخة الرؤوس. أما الزعيم وايت أنتولوپ (الظبي الأبيض) فإنه كان مقطوع الأنف والأذنين والأعضاء التناسلية»٧٢. ويقول المترجم جون سميث John Smith: «لقد مارسوا كل أنواع السلب والنهب. لقد سلخوهم، واقتلعوا أدمغتهم. واستخدم الجنود سكاكينهم لتمزيق أجساد النساء وشقهن، ولتعذيب الأطفال ودق رؤوسهم بأعقاب البنادق واقتلاع أدمغتهم والتمثيل بأجسادهم. وأسوأ تمثيل رأيته في حياتي هو تقطيع النساء إلى قطع صغيرة وتمزيق جثث الأطفال ذوي الشهرين أو ثلاثة أشهر. وعندما ذهبت إلى مكان المذبحة في اليوم التالي لم أر جسدا واحدا إلا وقد سلخ وقطعت أعضاؤه التناسلية٧٣. ويقول الليوتننت جيمس كانون James D. Cannon: «سمعت جنديا يقول إنه اقتطع فرج امرأة وعلقه على عود لعرضه. وسمعت آخر يقول إنه قطع أصابع هندية ليأخذ خواتمها. كما سمعت جنودا قالوا إنهم اقتطعوا فروج الهنديات وشدوها على مقدمات سروج خيولهم أوعرضوها على قبعاتهم أثناء الاستعراض العسكري. وسمعت جنديا يقول إنه شق قلب امرأة هندية ورفعه على عود»٧٤.

بعد انتهاء «المهمة» عقد الكولونيل شڤنغتون مؤتمرا صحافيا أعلن فيه أنه خاض مع رجاله «إحدى أكثر المعارك دموية مع الهنود، حيث تم تدمير أعتى قرى هنود الشايين!» فيما عمّت النشوة بين الزنابير في طول البلاد وعرضها حتى إن إفتتاحية إحدى الصحف شبهت فروات الرؤوس المقطوعة بالضفادع التي اجتاحت مصر قبل خروج بني إسرائيل منها، وأضافت «ليس

هناك أحد لم يتمتع بقطعة من فراء رؤوس الشايين، وهناك من بلغت به النشوة أن أرسلها [إلى أصدقائه] في الشرق»٧٥. أما الرئيس تيودور روزڤلت فإنه تسامى بهذه البطولات فوصفها بقوله «إن مذبحة ساند كريك كانت عملا أخلاقيا ومفيدا [ذلك لأن] إبادة الأعراق المنحطة حتمية ضرورية لا مفر منها»٧٦.

وفي عام المذبحة اكتشف أحد الصيادين إمكانية استخدام الأعضاء الذكرية أكياسا للتبغ. ثم تطورت الفكرة المثيرة من هواية فردية للصيادين إلى صناعة رائجة بعد أن صار «كيس التبغ» هذا، مِثل الشاربَيْن، من أبرز علامات الرجولة والفروسية والأرستقراطية الاستعمارية، وصار الناس يتهادونه في أعيادهم وأفراحهم٧٧. لكن هذه الصناعة لم تعمر طويلا في داخل أميركا بعد أن انخفض عدد الهنود في عام ١٩٠٠ إلى ربع مليون، وضاق وجه الأرض الأميركية بالسلخ وقطع الرؤوس ولم يعد أمام الحضارة إلا أن تبحث وراء المحيط عن مجاهل جديدة ووحوش طازجة في باناما والفيليپين واليابان وهايتي وكوريا وڤييتنام وما بين الحجون إلى الصفا.

|

في أربعينات القرن العشرين دخلت اليابان أطلس المجاهل وانضم اليابانيون إلى قائمة الشعوب المتوحشة. وسرعان ما صنفت دائرة الأنثروبولوجيا في مؤسسة سميثسونيان الثقافية اليابانيين مع الأعراق المنحطة. ففي رسالة وزعتها على المسؤولين الأميركيين أكدت فيها «أن جمجمة الياباني متخلفة عن جمجمتنا (الأنكلوسكسونية) أكثر من ألفي سنة»، بينما قال العسكريون «إن اليابانيين ليس فيهم طيارون مؤهلون قادرون على التصويب في اتجاه الهدف لأن عيونهم مشوهة منحرفة». وكانت حملة «التوحيش»، كالعادة، رخصة للتحلل من أي التزام أخلاقي أو إنساني أو قانوني تجاه الضحايا. ويروي مراسل حربي أميركي في مقالة له في Atlantic Monthly: «لقد قتلنا الأسرى بدم بارد، ومحونا المستشفيات من الوجود، وأغرقنا مراكب الإنقاذ، وقتلنا المدنيين وعذبناهم، وأجهزنا على الجرحى، وجرفناهم إلى حفر جماعية. وهناك في المحيط الهادي سلقنا لحم جماجم أعدائنا لنصنع منها عاديات تذكارية توضع على الطاولات وتهدى إلى الأحباب، أو صنعنا من عظامهم سكاكين لفتح الرسائل»٧٨. وكانت أعظم غنائم المحاربين هي هذه التذكارات التي يجمعها الجنود من جثث الضحايا أو المحتضرين كما يروي جون دوور في كتابه عن ظاهرة العنصرية في حروب المحيط الهادي «حرب بلا رحمة». من ذلك الأسنان الذهبية، الآذان، العظام، فروات الرؤوس، والجماجم وغير ذلك من تذكارات فيتيشية٧٩ طالما اعتبرها علماء الاجتماع العرقيون دليلا على العقلية البدائية التي تعبد الجماد وتتعلق به مرضيا وجنسيا. وقد لاقت هذه «التذكارات» ترحيبا كبيرا لدى الشعب الأميركي حتى إن مجلة لايف نشرت في عام ١٩٤٤ موضوعا عن الحرب مزينا بصفحة كاملة لصورة صبية شقراء يفتر ثغرها عن بسمة السعادة والفخار وهي تقف إلى جانب جمجمة يابانية أرسلها إليها خطيبها من الجبهة. ويبدو أن عبادة التذكارات طقس قديم يعود على الأقل إلى عام ١٨١٤ عندما أشرف الرئيس جاكسون بنفسه على سلخ ٨٠٠ من هنود الكريك، واقترح أن ترسل قطع من تلك الجثث هدايا إلى السيدات

الأرستقراطيات في تنسي٨٠.

بعد أقل من عقدين مضيا على نشر صورة «الحسناء والجمجمة» في مجلة لايف وصف الجنرال وستمورلند William Westmorland الشعب الڤييتنامي بالنمل الأبيض٨١ termite. والنملة البيضاء أخطر حشرة يخشى الأميركي أذاها على بيته، ولذا فهي مرتبطة في ذهنه بحتمية وشرعية وأخلاقية مكافحتها بمبيدات الحشرات. في هذا السياق التاريخي الطويل من إبادة الحشرات على مدى أكثر من أربعة قرون، يستخدم الجنرال هنا سلاح الإبادة دون أي رغبة في أن يعرف شكل ضحاياه أو عددهم. ولقد سهل القصف الجوى وإطلاق الصواريخ عن بعد والقتل الالكتروني هذه المهمة حتى جعلها أشبه بلعب التسلية. إن الفلاح الفيتنامي تحول إلى نملة بيضاء، مثلما تحول الهندي إلى دودة، والفيليپيني إلى حشرة، والعربي العراقي إلى صرصار. هكذا لم يجد الجنود حرجا في الاحتفاظ ببعض أعضاء هذه الحشرات الفيتنامية تذكارا كما فعل آباؤهم في الحرب العالمية الثانية. وليس غريبا إذن أن لايجدوا فرقا بين مجاهل العالم الجديد ومجاهل ڤييتنام وأن يطلقوا على هذه الجبهة الجديدة اسم «البلاد الهندية». وكان Hugh Manke رئيس قسم المتطوعين الدوليين، في شهادة له أمام الكونغرس، عام ١٩٧١، قد أكد على عزم القوات الأميركية على إبادة ڤييتنامي الجبال واحدا بعد الآخر، وقال «إننا سنحل مشكلتهم كما فعلنا مع الهنود». بل إن الجنرال مكسويل تايلورMaxwell Taylor وصف الڤييتكونغ في شهادته أمام الكونغرس بأنهم «هنود» وأنهم لذلك ليسوا بأفضل من قمل يغزو جلد الكلاب. أما السفارة الأميركية في سايغون فوصفتهم على لسان ضابط علاقاتها العامة جون مكلين John Mecklin بأن عقولهم تعمل كما تعمل السيقان الرخوة للطفل المشلول، وأن محاكماتهم العقلية لا تضاهي طفلا أميركيا في السادسة من عمره٨٢. وكانت قناة History التلفزيونية قد عرضت (١٣ تموز ١٩٩٦) شكلا حديثا متطورا من مشاهد السلخ في فيلم وثائقي بعنوان قيام العنقاء Phoenix Rising نرى فيه الجنود الأميركيين في ڤيتنام وهم «يقطفون» رؤوس مايُشتبَه بأنهم من كوارد الڤييتكونغ، ويعرضونها في مهمة أشرفت عليها وكالة الاستخبارات المركزية في أواخر ١٩٦٧ وأطلقت عليها عملية العنقاء Operation Phoenix.

وتتضارب الأرقام النهائية لعدد ضحايا العنقاء بين شهادة وأخرى. فبينما يعترف وليم كولبي، وكان يومها يدير عمليات السي آي إيه في الڤييتنام، بأن حصيلة القتلى بين المدنيين في نهاية ١٩٧١ بلغت ٢٠٥٨٧ و ٢٨٩٧٨ معتقلا (تبين لاحقا أنهم أبيدوا)، و١٧٧١٧ تولت أمرهم حكومة سايغون، يقول تقرير لجنة تشيرشChurch (العام ١٩٧٦) أن عدد القتلى من المدنيين بين ١٩٦٨ و١٩٧٠ زاد على العشرين ألفا. أما وزارة الدفاع فتعترف بأن عدد القتلى المدنيين في ڤييتنام الجنوبية وحدها كان ٢٦٣٦٩ بينما بلغ عدد المعتقلين ٣٣٣٥٨. ويتحدث روي پروسترمن Roy Prosterman أستاذ القانون في جامعة واشنطن عن نشاطات جانبية لعملية العنقاء خاصة بإصلاح الأراضي في ڤييتنام والفيليپين والسلڤادور فيقول إن عدد ضحايا ڤييتنام وحدها من هذه العملية مابين ١٩٦٨ ومنتصف ١٩٧١ زاد على الأربعين ألفا. ومهما كانت حقيقة

الأرقام فإن برنامج العملية يقتضي تصفية كل من يشتبه بأنه من القيبتكونغ أو يتعاطف معهم بمعدل ١٨٠٠ قيبتنامي شهريا على أقل تقدير٨٣. وكان المدنيون المشتبه بتعاطفهم مع القيبتكونغ أكبر الضحايا فقد كانوا يعتقلون بالآلاف ويقتلون تحت التعذيب. ويروي بارتون أوسبورن أحد ضباط العملية في شهادة له أمام لجنة الكونغرس للشؤون العسكرية لعام ١٩٧٣ صورة مما كان يجري أثناء التحقيق فيقول: «كنت أنظر في قضية مشتبه يقول أحد عملائي إنه متعاطف مع القيبتكونغ. وكان التحقيق يجري في مجمّع التجسس المضاد لفرق المارينز. وحين دخلت لمتابعة ما يجري كان الرجل قد فارق الحياة بعد أن دكّوا في فتحة أذنه سيخًا حديديا طوله ست بوصات اخترق دماغه وقتله .. لقد كانت حرب إبادة منظمة». وتصف مجلة Counterspy في عدد ربيع/ صيف ١٩٧٥عملية العنقاء بأنها: « أكبر برنامج للقتل الجماعي المنظم شهده العالم منذ معسكرات الموت النازية».

في الساعات الأخيرة من وجودهم في قيبتنام، وبعد أن ألقوا عليها ١٤ مليون طن من القنابل، انصب كل جهد الدولة الأميركية على إنقاذ «البيض». لم يتخلوا عن حلفائهم القيبتناميين وحسب بل تخلوا حتى عن جنودهم الملونين وعن كل ما ليس بأبيض من المئات من موظفيهم المتجمعين في Hotel Duc والآلاف من عملائهم المحتشدين أمام السفارة. وكان الأمر الصادر من الدولة الأميركية حاسما وواضحا: «أنقذوا السادة أصحاب البشرة البيضاء Save the gentlemen in the white skin». وقبل أن تقلع الهيلوكبتر بالقنصل هنري بودرو Henry Boudreau أطل من علاه وتفحص الحشود في مبرك السيارات وقال بكثير من الارتياح: «لم أر أي وجه أبيض هناك»٨٤.

إن أميركا الحديثة منذ ترومن حتى بوش حاولت التوسع في غرب «الغرب الأميركي» وحيثما شاء «القدر المتجلي». لقد حاولوا التصدي للشيوعية والتوسع الصيني وبسط سيطرتهم على منابع النفط العربية، وهم في كل خطوة من هذا التوسع «لم يتخلوا قيد أنملة عن السياق التاريخي العنصري والدموي» كما يوضح دانيال إلسبرغ٨٥.

قبل أن يصدر رمزي كلارك Ramsey Clark وزير العدل السابق كتابه عن جرائم أميركا في حربها على العراق٨٦، كانت الفرقة الجوية القتالية السابعة والسبعين قد أنتجت ووزعت كتاب أناشيد تصف فيه ما ستفعله الفرقة في «الخليج » وتنذر هذا «المتوحش القمىء» ..«خدن الأفاعي» بأن يستعد للإبادة فيما ينتهي أحد هذه الأناشيد بخاتمة تقول: «الله يخلق أما نحن فنحرق الجثث Allah create but we cremate». والكتاب كما يصفه كريستوفر هيتشنس في The Nation خليط من السادية والفحش. ومعظمه تشنيع وتشهير وشتائم بذيئة للعرب والمسلمين باعتبار أنهم أعراق منحطة و«حشرات» و«جرذان » و«أفاع»٨٧. وقد اعترف نورمن شوارزكوف في عدة مقابلات تلفزيونية بأنه كان يريدها معركة فناء، وأشار إلى أنه كان يخطط لأن تكون على شكل معركة كاناي Cannae القرطاجية ٨٨ التي يطلق الطليان على موقعها اليوم اسم «حقل الدم». ومن يدري ما ستكشف عنه وثائق هذه الحرب وما تلاها من حصار حين ترفع السرّية

الكاملة عنهما يومًا يتطاير فيه الريش مع رؤوس من تبقى من هذا الجنس اللعين!

كمائن الاتفاقيات

قبل أن يبني جورج واشنطن عاصمته فوق ما أسماه بالسباخ أو المستنقعات الخاوية marshy wilderness والتي تبين لاحقا أنها كانت جزءا من مدينة هندية عامرة على ضفاف نهر البوتوماك أمضى حياته في الاستيلاء على أراضي الهنود والمضاربة بها وبناء ثروة هائلة وضعته على قمة هرم أغنياءالعالم الجديد. ومن خلال هذه القرصنة العقارية بنى واشنطن معظم ملامح سياسته الهندية التي هيأت بعد ذلك لقانون الترحيل القسري. لقد طوّر أعظم آباء أميركا هذه التجربة الشخصية الناجحة في مشروع قرار يسمح للدولة الفيدرالية الفتية بأن تستولي على أراضي الهنود بسهولة أكبر وكلفة أقل. وفي عام ١٧٨٢ وافق الكونغرس على مشروع واشنطن الذي يتلخص بخردقة الأراضي الهندية بالمستوطنين واستدراجهم باستمرار إلى كمين الموت. فالمعروف أن المستوطن في مستعمرات نيو إنكلند كان بحاجة إلى خمسين هكتارا من الأرض لنفسه وخمسين هكتارا آخر كمجال حيوي. وبما أن هذا المجال الحيوي يتحول بسرعة إلى مُلك فإن هناك حاجة لا تنتهي إلى مجال حيوي جديد للمجال الحيوي القديم. هكذا امتد المجال الحيوي الاستيطاني من شواطىء الأطلسي في القرن السابع عشر إلى شواطىء الهادي في منتصف القرن التاسع عشر، وكان كل مجال حيوي جديد يحتاج إلى نشاط «العامل الطبيعي» ومعجزات العناية الإلهية وأضرارها الهامشية.

في خطاب معبر يصف الزعيم «الحية الرقطاء Speckled Snake» لشعبه هنود الكريك هذا الزحف اللانهائي للمستوطنات والمستوطنين فيقول: «أيها الأخوة، لقد سمعنا حديث أبينا الكبير. إنه حديث مفعم باللطف. إنه يقول إنه يحب أبناءه الحمر. عندما وصل الإنسان الأبيض من أعالي البحار كان إنسانا ضئيلا جدا. كانت ساقاه متشنجتين لطول مكثهما في جزمته الكبيرة. وكان يستعطفنا أن نعطيه قطعة أرض صغيرة. وما أن وصل حتى أعطاه الهنود الأرض التي يحتاجها وأشعلوا له النار ليدفئوه ويريحوه. ولكن ما أن أحس الإنسان الأبيض بالدفء وانتعش جسده بنار الهنود، وما أن ملأ بطنه من طعام الهنود حتى صار كبيرا جدا يناطح قمم الجبال وتملأ قدماه بطون الوديان. أما يداه فاستحوذتا على بحار الشرق والغرب. ثم إنه أصبح أبانا الأعظم وأحب أبناءه الحمر، لكنه قال: « يجب أن تنزحوا قليلا حتى لا أسحقكم سهوا». بقدم واحدةٍ لبَطَ الرجالَ الحمر عبر الأوكوني (مقاطعة في كارولينا الجنوبيةاليوم)، وبالقدم الثانية مسحَ مدننا وقبورَ آبائنا. وفي مناسبة ثانية قال: «أزيحوا أكثر، وانزحوا إلى ما بعد الأوكوني فهناك مكان بهيج لكم، ولسوف يكون لكم هذا المكان البهيج إلى الأبد». وهاهو يقول لنا الآن: «إن الأرض التي تعيشون فوقها ليست لكم. إنزحوا وراء الميسيسيبي فهناك متسع. وهناك تستطيعون البقاء ما نبت العشب وجرت الأنهار». ألن يجيىء أبونا الأعظم إلى هناك أيضا؟ [الخطبة ألقيت في ١٨٢٩ قبل اجتياز الميسيسيبي]. إنه يحب أبناءه الحمر ولسانه ليس مشطورا. يا أخوتي، لقد

سمعت من الأب الأعظم أحاديث بديعة، لكنها كلها كانت تبدأ وتنتهي : «انزح قليلا فأنت قريب مني».

كانت حرب ما يسمى بالاستقلال قد وضعت أوزارها وصار متقاعدوها عبئا اقتصاديا واجتماعيا. وكانت خطة واشنطن ترمي إلى اقطاع أراضي الثغور لهؤلاء المحاربين المتقاعدين، واستثمار طاقتهم القتالية اقتصاديا وسياسيا بحيث يستمر التوسع داخل أراضي الهنود دون الحاجة إلى الجيوش والحرب الشاملة. ومضى الرئيس الذي يشع وجهه من الأيقونة المقدسة لورقة الدولار يذكّر أعضاء الكونغرس بأن هؤلاء المستوطنين ليسوا رجالا عاديين بل إنهم أبناء الحروب والمعارك وأصحاب تجربة عسكرية وحنكة قتالية تمكنهم من ترويع الهنود وإنزال الرعب في قلوبهم ودفعهم إلى الفرار. إنهم يستطيعون إخماد مقاومة الهنود إذا اختار الهنود طريق المقاومة، ويشكلون ميليشيا ممتازة للدفاع عن «استحقاقات» الولايات المتحدة في بلاد أوهايو٨٩.

في هذا التقليد الانكليزي العريق الذي يقول ما لايفعل ويعد بما لا يفي اقترح واشنطن عقد سلسلة من الاتفاقيات مع الهنود بهدف الاستيلاء على الأراضي الغنية والمناطق الاستراتيجية اللازمة لأمن المستوطنين في مقابل... «وعود»... بعدم المساس بما تبقى لهم من الأرض. ومن هذه الوعود التي يقدمها المتفاوضون للهنود أن الولايات المتحدة ستفعل ما في وسعها للحيلولة دون قيام مواطنيها بالصيد أو الاستيطان في أراضيهم. هذا يعني أن الأب الأعظم للولايات المتحدة في خطته الرامية إلى تعزيز الاستيطان يقر رسميا بأنه يريد أن يكذب على الهنود قبل أن يفاوضهم، ويؤكد أن الهدف الأول هو خداع الهنود وكسب ما يمكن كسبه على طاولة المفاوضات في مقابل «وعود» يقرر سلفا وعلنا عدم الوفاء بها. ولضمان ذلك يوصي واشنطن بأن تكون وعود المفاوضين شخصية وغير ملزمة للحكومة الأميركية. لقد أحلته عقدة الاختيار والتفوق من أي التزام إنساني أو قانوني وأوهمته بأنه يملك حق تقرير الحياة والموت لهذه الكائنات التي لم يستطع أن يراها إلا كما يرى الذئاب. إنه في رسالته إلى جيمس دواين يؤكد على أن «التوسع التدريجي للمستوطنات» يقتضي « أن يفر الهنود المتوحشون على أعقابهم كما يفعل الذئاب، فالذئاب والهنود كلهم وحوش مفترسة وإن اختلفوا في المنظر»٩٠. وقد تم إقرار خطة واشنطن باجماع أعضاء الكونغرس الذين قال بعضهم إن هذا الأسلوب من الاتفاقيات لن يبقي للهنود في النهاية سوى منعزلاتهم. أما الذين سيحاولون الوقوف في وجهها فإن مصيرهم التهجير القسري أو الإبادة٩١. إن الهندي، كما يقول إدموند مورغن في كتابه المذكور عن «العبودية والحرية في أميركا» لايستطيع أن يدافع عن نفسه، لأنه لا يملك حقا يدافع عنه. يكفى أن يفكر في أن يكون له حق حتى يصبح معتديا وحتى تنطلق عفاريت التدمير والقتل من قمقمها.

وكانت هذه الخطة التي تم تنفيذها قبل إقرارها رسميا أول تشريع لنظام الترحيل القسري الذي توّجه الرئيس جاكسون بعد ذلك برحلة الدموع. فبمجرد دخول أندرو جاكسون إلى البيت الأبيض ضمت ولاية جورجيا أجزاء كبيرة من بلاد الشيروكي، وذلك في حيل قانونية طالما استخدمها جاكسون لتبرير اغتصاب أراضي الهنود. وظن الشيروكي أن نزاهة القضاء كافية لإنصافهم

فلجأوا إلى المحكمة العليا. وبينما كانت القضية تواجه جدلا بيزنطيا في المحكمة العليا كان اكتشاف الذهب قد جذب أكثر من أربعين ألف مستوطن إلى أراضي الشيروكي بتشجيع من الحكومة. كان العدل يأخذ مجراه فيما كان المستوطنون يصادرون المزارع، ويتملكون الأراضي، ويطردون ويطاردون الشيروكي إلى الغابات، ويتملكون بونانزا أقفرت من أهلها. وأصر الشيروكي على المقاومة السلمية فربحوا قضيتهم في المحكمة العليا بعد أن حكم القاضي جون مارشال لهم باستعادة أملاكهم. أما جاكسون فاعتبر القرار انتصارا للديمقراطية وفصل السلطات ودولة القانون، وقال وهو يحيل قرار المحكمة للتمسيح: «لقد أصدر القاضي مارشال حكمه. وعليه الآن أن يجد من ينفذه»! هكذا نال الشيروكي بالمقاومة السلمية قرارا تاريخيا من المحكمة العليا انتهى تنفيذه بطردهم من معظم أراضيهم إلى غرب المسيسيبي حيث لم تكن أيدي القدر المتجلي قد طالته أو أعلنت عن أطماعها فيه.

أما الهنود الذين عاكسواانتشار الحضارة ورفضواالاحتكام إلى القانون فسرعان ما تولاهم «العامل الطبيعي» بالطرد والقتل، أو كما يعبر عن ذلك توماس جفرسون بدون مواربة: «لقد أبيدوا». وكان شعب الهودينوسوني Haudenosaunee أول من اكتوى بنار الاتفاقيات، فبرغم حقهم في أكثر من نصف ما صار يعرف اليوم بولاية نيويورك بموجب معاهدة فورت ستانويكس Fort Stanwix لعام ١٧٨٤ فإن حاكم الولاية جيمس كلينتون سرعان ما استلبهم بالشمال ما أعطتهم الاتفاقية باليمين، واضطرهم هم وما تبقى من «الأمم الست» إلى الإنكفاء بالقوة داخل منعزل بور صغير. أما شعب الأونيدا Oneida الذي اطمأن إلى الاتفاقيات والوعود وأبلى إلى جانب جورج واشنطن في حرب الاستقلال بلاء «الحلفاء» المخلصين منتظرا عيد الشكر فإن كلينتون تنكر لكل اتفاقياته ووعوده فطرد المسالمين منهم إلى وسكنسون وأما المشاغبون فإنهم انتهوا في معصرة غضب الرب. إن كل ما تبقى من هذا الشعب اليوم أسماء رمزية لمدن لا يسكنونها ومقاطعات وانهار استعصت على أشباحهم٩٢.

هكذا أدركت الإتفاقيات من الهنود ما أدركته الأوبئة والحروب المتواصلة، فلم تمض فترة طويلة على خطة واشنطن حتى كان الشمال الشرقي للولايات المتحدة قد تطهر من الشعوب الهندية، وبدأت عيون «القدر المتجلي» تتطلع بعيدا، إلى الغرب من نهر الميسيسيبي حيث انهارت فكرة تخصيص هذا الغرب وطنا للهنود. في أقل من ٧٥ سنة ابتلعت هاوية الاتفاقيات ما يعرف اليوم بولاية ميزوري، وأركنسو، وإيوا، وأتت الإجتياحات على الباقي، فمن لم يمت بالسيف مات بالاتفاقيات. وكان الغزاة في أثناء ذلك قد اجتاحوا تكساس، وضموا أورغون، وأيداهو، وواشنطن التي تخلى عنها البريطانيون بعد حرب الاستقلال لأعدائهم الثوار ورفضوا أن يعطوها لحلفائهم الهنود الذين حاربوا إلى جانبهم وبذلوا دمهم في سبيل تاجهم. وفي عام ١٨٤٨ عندما اجتاحت الولايات المتحدة المكسيك واستولت على كاليفورنيا وأريزونا ونيڤادا وأوتاوا ونيومكسيكو وجنوب كولورادو صار غرب الميسيسيبي أقتل من شرقه وأطبق الحصار على هؤلاء الأشقياء من كل جانب.

في البداية، ظن المستعمرون أن «غرب الميسيسيبي» هو المزبلة المناسبة للهنود، وأن هذه الصحراء الأميركية التي تتضمن ما يعرف بالسهول الكبرى هي المنفى المثالي لتهجير من لم يقطفه سيف المنون. وقد اعترفت الولايات المتحدة في كل الإتفاقيات التي عقدتها مع الهنود في فورت لارامي Fort Laramie عام ١٨٥١ بأن كل ما يعرف بالسهول الكبرى هو منطقة هندية ذات سيادة تخص هذا الشعب الهندي أو ذاك، وتعهدت بأن لا تنشىء فيها مستوطنة أو تجمعا سكنيا دائما. لكن اكتشاف الذهب بعد سنوات قليلة في التخوم القريبة من هنود الشايين وتدفق المغامرين بأعداد كبيرة اضطر الحكومة الفيدرالية في ١٨٦١ إلى «فبركة» وثيقة مزورة يتخلى فيها الهنود دفعة واحدة عن ٩٠ بالمئة من أراضي السهول الوسطى. وعندما رفض زعماء الشايين الإعتراف بهذه الوثيقة المزوة وأبرزوا المعاهدة الأصلية التي ما يزال كل الذين فاوضوا عليها ووقعوها على قيد الحياة اتهمتهم الحكومة الفيدرالية بخرق المعاهدة واعتبرت تصرفهم إعلانا للحرب. وسرعان ما تعالت نداءات الإبادة، لكن القائد العسكري سكوت أنتوني .Scott J Antony فضّل سياسة الإبادة بالحصار والتجويع والتدمير الشامل للبنى الإقتصادية اللازمة للحياة لأنها أسهل من الحرب المسلحة وأجدى وأقل كلفة، ولأنها لن تترك أمام الشايين من خيار سوى الهجرة أو الموت جوعا.

ومع اكتشاف الذهب والفضة والثروات الخام هنا وهناك تحت أقدام الهنود تكرر خرق الإتفاقيات في معظم مناطق السهول الكبرى وتعرضت الشعوب الهندية لحرب تجويع شرسة أبيد فيها بين ما أبيد كل احتياطي الجواميس في هذه المناطق الممتدة طبيعيا من حدود المكسيك جنوبا حتى القطب شمالا. أما الذين قاوموا، كشعب السانتي، فأصبحوا هدفا مشروعا لحرب الإبادة. وفعلا فقد وجه حاكم داكوتا دعوة علنية إلى إبادتهم أو ترحيلهم. ولما رفضوا التهجير زحف إليهم الجنرال هنري سيبلي Henry H. Sibley على رأس بضعة آلاف من الميليشيا فأعملوا فيهم تقتيلا وتهجيرا، وصادروا كل أملاكهم لتغطية نفقات الحملة العسكرية، وساقوا الذين استسلموا منهم، وكانوا في حدود الألفين، إلى زرائب مهجورة حيث أقيمت أكبر حفلة إعدام جماعية في تاريخ أميركا. ثم أعلنت الولاية عن مكافأة لكل من يأتي بفروة رأس لأحد «الفارين» ، فاستعر صيد الرؤوس لأكثر من سنة إلى أن تتوج بنصب كمين للزعيم لتل كراو Little Crow العائد من كندا حيث قتل، وتلقى قاتلوه خمسمائة دولار إضافة إلى مكافأتهم، ثم نصبت فروة رأسه وجمجمته في مكان عام من سانت پول للذكرى والاعتبار٩٣.

اقتل الهندي واستثنِ الجسد

لم يدر بخلد الغزاة أنَ هذه الشظايا التي بقيت من أوطان الهنود تكتنز ثروات باطنية هائلة. لم يحشروهم في هذه المفازات القاحلة من الأراضي ولم يتخلوا لهم عنها (مؤقتا) إلا لأنهم ظنوا أنها مجرد ثقوب سوداء يمتص فيها الموت من تبقى من أمم الهنود حيث لا يراهم أحد ولا يبكيهم أحد. كان الخوف من استحالة الإبادة الجسدية الكاملة من أقسى الكوابيس. إن القاتل لا يطيق أن يرى

أحدا يشهد. وكان لابد لهذه الإبادة من سلاح آخر يبيد «هندية»٩٤ الهنود.

منذ ١٨٧٠ و«هندية» الهنود تشرب الأنخاب المسمومة. كانت صيحات التذويب الثقافي تواكب حفلات السلخ وتدعو إلى تدمير هذه الهندية وإعادة بنائها بحجارة التاريخ الأبيض والدين الأبيض واللغة البيضاء. إن نهب ما تبقى من أرض الهنود لا يتم إلا بتدمير هندية الهنود: ثقافتهم وبنتيهم الإجتماعية التي لا تؤمن بالملكية الفردية. لقد صارت «ثقافة الهنود مضرة بالمصلحة الوطنية»٩٥ وليس هناك عدوان على أميركا أخطر من الإضرار بمصلحتها الوطنية التي قد تشمل كل ما يخطر على بالك بدءا من السطو على حسابك المصرفي (وحياتك عند اللزوم) وانتهاء باستثمار آبار نفطك وثروات بلادك. والتزاما بهذه المصلحة كان لا بد من خلقٍ جديد لهنديّ ليس له من هنديته إلا البيولوجيا. لا بد من صياغة جديدة لوعيه وذاكرته وأخلاقه ومسلمات عقله. فإذا تعذر قتل الجسد لابأس من استبطان الموت، ولا بأس به كائنا ممتلئا بالمحو ومزينا بالريش، أو تمثالا حجريا منصوبا فوق قبة الكابيتول؛ «رمزا [سادياً] للحرية». وليعرف هذا الهندي كل شيء إلا ذاته. وفي هذا الإطار اعتبرت الشعائر الروحية للهنود خطرا وتم تحريم ممارستها. هكذا يمارس الهندي اليوم شعائر روحية منتقاة بأسلوب يتناغم مع «المصلحة الوطنية» ومع البرامج السياحية التي ينظمها البيض.

ولكي تؤتي حملة التذويب ثمارها فتقتلع جذور الكراهية غير المبررة من نفوس الهنود وتشرح صدورهم للتخلي عن أراضيهم فقد رفعت شعار مفوض الشؤؤن الهندية فرانسيس لوبFrancis Leupp : إقتل الهندي واستثن الجسد (حرفيا: استثن الرجل). وكان أنبياء الوول ستريت قد وضعوا مئات الدراسات عن تلازم الحضارة والملكية الفردية وعن وحشية وشيطانية هؤلاء الذين لا يؤمنون بها. بل إن مارتن لوثر الذي يعتبر الملكية معيارا للتفريق بين الإنسان والحيوان اتهم القديس فرانسيس الأسّيزي بأنه «مختل العقل، طائش، أحمق، شرير»٩٦ لمجرد أنه كان يطلب من أتباعه أن يتخلوا عما لديهم للفقراء! ومنذ نزولهم في جيمستاون عام ١٦٠٧ لم يستطع القديسون أن يميزوا بين السماء وعجل الذهب: «لقد وجدنا أرضا واعدة أكثر من أرض الميعاد، فبدلا من اللبن وجدنا اللؤلؤ، وبدلا من العسل وجدنا الذهب»٩٧. وكان الكونغرس قد أقر في ١٨٨٧ قانونا لتقسيم الأراضي يهدف في النهاية إلى نسف تقليد الملكية الجماعية عند الهنود، واستبداله بتقليد «حضاري متنور» يعتمد الملكية الفردية. ويقضي القانون بأن يمنح الهندي قطعة مناسبة من أرض بلاده. أما ما تبقى فيعتبر «فائضا» تتصرف فيه الحكومة الأميركية وفقا لمصلحتها، كأن تستثمره بواسطة الشركات «البيضاء»، أو تعلنه محميات طبيعية ومناطق عسكرية. بهذا التزوير المناسب لثقافة الهنود تسيطر المصلحة الوطنية على مئة مليون فدان جديد من أصل ١٥٠ مليون فدان ما تزال ملكا للهنود. كذلك اقتضت المصلحة الوطنية ترحيل أطفال الهنود عن أهلهم وإخضاعهم في أبكر سن ممكنة لغسيل دماغ منظم داخل معسكرات مدرسية أعدّت خصيصا لنحت أرواحهم. وتتولى «الهيئات الفنية» إعادة صياغة ذاكرتهم الجماعية ووعيهم لأنفسهم وللعالم: هيئات فنية ذات طبيعة بوليسية تمنع على الأطفال أن يتحدثوا بلغتهم،

أو أن يمارسوا شعائرهم الدينية، أو أن يرتدوا ملابسهم التقليدية، أو أن يزينوا شعورهم على ما تعود عليه آباؤهم وأجدادهم. بل إنها تقتلعهم نهائيا من عالمهم فتضرب حصارا على كل اتصال ممكن بينهم وبين أهلهم أو أحبائهم «المتوحشين». هكذا تُحشى أدمغة هؤلاء الأطفال بكراهية أنفسهم ومجتمعاتهم والشغف بمتابعة غراميات الأميرة ديانا وأخبار اصطبلات جلالة الملكة إليزابيت والاستمتاع بقتل الهنود في أفلام الكاوبوي. أما على الصعيد العملي فإنهم يتخرجون عمالا يدويين لا أمل لهم إلا بخدمة «المصلحة الوطنية» فيما قد يعين المتفوقون منهم سدنة لمعابدهم الشريفة أو خبراء في مؤسسات إعلامية. وقد تم تتويج هذا التذويب الثقافي في عام ١٩٢٤ عندما أجبر كل الهنود على حمل الجنسية الأميركية.

وعلى الرغم من نجاح خطة التذويب في زرع بعض الألغام الثقافية داخل المجتمعات الهندية إلا أنها لم تكسر بنيتها «الأسّيزية». وظلت هذه الأراضي الغنية بالذهب والنفط والفحم واليورانيوم ملكا مشاعا عصيا على الإختراق. لهذا عززت الولايات المتحدة خطة التذويب الثقافي الكلاسيكية بسلطة إستعمارية داخلية يشبهها الهنود بالتفاحة؛ حمراء الظاهر، بيضاء الباطن. وكان قانون «إعادة تنظيم الهنود Indian ReOrganization » الذي أقره الكونغرس في ١٨حزيران/يونيو ١٩٣٤ قد أطلق على هذه السلطة اسم «مكتب الشؤون الهندية» وألحقها بوزارة الداخلية التي تعنى عادة بثروة الولايات المتحدة من الحيوانات البرية والغابات والأنهار والمحميات الطبيعية.

وبالطبع فإن مواد القانون أعطت للهنود شكلا ظاهريا من أشكال الحكم بينما ساعدت خطة التذويب الثقافي على خلق الأطر المناسبة لهذا الإستعمار الداخلي وجعله الشكل الأمثل للقضاء على هندية الهنود ولسيطرة الولايات المتحدة على ثرواتهم واستغلالها لقاء عائدات رمزية يُستثمر معظمها في زراعة التفاح.

ومنذ البداية أراد عضوا الكونغرس اللذان اقترحا قانون «إعادة تنظيم الهنود » وسمي باسمهما Wheeler- Howard Act أن تجترح هذه السلطة الاستعمارية الداخلية أكبر معجزات العناية الإلهية وأن تضع اللمسات الأخيرة على خطة الإبادة الشاملة وتتولى تنفيذ سياستها. وفي إطار هذه السياسة تنشط خطة التذويب الثقافي والنجاح في شطب ١٠٨ شعوب من قائمة الشعوب الهندية المعترف بها رسميا، بكل ما يعني ذلك من تبخر حقوقهم التاريخية في أرضهم وثرواتهم . ومن ذلك أيضا المساعدة على تعقير ٤٢ بالمئة من النساء الهنديات القادرات على الحمل قبل أن تفتضح هذه الجريمة في منتصف السبعينات ويتوقف العمل بها ظاهريا دون معاقبة أحد ومن دون أن يخسر وظيفته أحد. ومن ذلك تحويل الهنود إلى حقول تجارب في المختبرات الطبية والبيولوجية، بدلا من الفئران، كما حدث في منتصف الثمانينات عندما أجرت شركة نورث سلوپ North Slope على هنود الإنويت Inuit تجارب طُعم التهاب الكبد الذي منعت منظمة الصحة العالمية استخدامه لتسببه في مرض الإيدز. ولما علم زعماء الإنويت بذلك ورفضوا الاستمرار في «قتل» أطفالهم نجحت السلطة في نقل التجارب إلى الغافلين من هنود الجنوب.

لقد جرب الجلاد المقدس أسلحة صيد كثيرة، لكنه أبدا لم يتخل عن هاجس الإبادة الكاملة. إن

إبادة ١١٢ مليون إنسان ينتمون إلى أكثر من أربعمائة أمة وشعب جريمة لم يعرف التاريخ الإنساني مثيلا لها في حجمها وعنفها وفظاعتها لكنها جريمة لم تكتمل فصولا ولم تصل إلى غايتها المرسومة.

المعنى الإسرائيلي لأميركا

إننا نقرأ التاريخ لنتعلم من خبرات الذين سبقونا إلى المجاهل، ولنعتبر بتجاربهم وأخطائهم إذا كنا فعلا نحب الحياة ونعتقد بأننا نستحق هذه الحياة. إن أميركا ليست إلا الفهم الإنكليزي التطبيقي لفكرة إسرائيل التاريخية، وإن كل تفصيل من تفاصيل تاريخ الاستعمار الانكليزي لشمال أميركا حاول أن يجد جذوره في أدبيات تلك الإسرائيل، ويتقمص وقائعها وأبطالها وبعدها الديني والإجتماعي والسياسي، ويتبنى عقائدها في «الاختيار الإلهي» وعبادة الذات وحق تملك أرض وحياة الغير. لقد ظنوا أنفسهم، بل سموا أنفسهم «إسرائيليين» و«عبرانيين» و«يهود» وأطلقوا على العالم الجديد اسم «أرض كنعان» و«إسرائيل الجديدة»، واستعاروا كل المبررات الأخلاقية لإبادة الهنود (الكنعانيين) واجتياح بلادهم من لاهوت إسرائيل.

ولا أنكر أن هناك شيئا من التضليل في الانسياق وراء قياس التمثيل في دراسة الحوادث التاريخية. لكن السؤال عن وجوه الشبه ووجوه الاختلاف بين حادثتين تاريخيتين يجاب عنه دائما بلا، وبنعم. فعلى مستوى معقول من التدقيق والتمحيص في التفاصيل لابد من اكتشاف بعض وجوه الاختلاف، وعلى مستوى معقول من التجريد لابد من اكتشاف بعض وجوه الشبه. و برغم اقتناعي بأن وجوه الشبه عديدة على المستويين التجريدي والتفصيلي، يبقى علينا أن نجيب: هل إن السؤال عن المعنى الإسرائيلي لأميركا ممكن، ويستحق العناء؟ وهل إن المستوى التجريدي الذي يكشف عن إسرائيلية أميركا هو فعلا مستوى معقول ويمكن البناء عليه؟٩٨

إن فكرة أميركا، فكرة «استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة» عبر الاجتياح المسلح وبمبررات «غير طبيعية» هي محور فكرة إسرائيل التاريخية. وإن عملية الإبادة التي تقتضيها مثل هذه الفكرة مقتبسة بالضرورة ـــ بشخصيات أبطالها (الاسرائيليين، الشعب المختار، العرق المتفوق) وضحاياها (الكنعانيين. الملعونين، المتوحشين البرابرة) ومسرحها (أرض كنعان، وإسرائيل) ومبرراتها (الحق السماوي أو الحضاري) وأهدافها (الاستيلاء على أرض الغير واقتلاعه جسديا وثقافيا) ـــ من فكرة إسرائيل التاريخية.

هذا الاعتقاد بأن هناك قدرا خاصا بأميركا وأن الأميركيين هم الإسرائيليون الجدد و«الشعب المختار» الجديد يضرب جذورا عميقة في الذاكرة الأميركية، وما يزال صداه يتردد في اللغة العلمانية الحديثة أو ما صار يعرف بالدين المدني Civil Religion. إنه اعتقاد يتجلى لعينيك في معظم المناسبات الوطنية والدينية وفي كل خطابات التدشين التي يلقيها الرؤساء الأميركيون مفاده أن «الله، القدر، حتمية التاريخ...الخ» اختار الأمة الأميركية (الانكلوسكسونية المتفوقة) وأعطاها دور المخلّص٩٩ (الذي يعني حق تقرير الحياة والموت والسعادة والشقاء لسكان المجاهل).

ولطالما كانت فكرة الإختيار الإلهي محركا لولبيا في التاريخ الأميركي، ولشد ما أشعلت النيران في الحماسات والمشاعر والبوارید وفي القرى والمدن والجثث في أكثر من أربعين دولة، وعززت القناعة بأن لأميركا قدرا أعلى من كل أمم الأرض، وأنه مهما حل بإسرائيل فوق أرض فلسطين فإن إسرائيل الأميركية تبقى القلعة المحصنة لاعادة بنائها ولقيمها ومبادئها وأخلاقها. إن يهود الروح الذين يمثلهم الأنكلو سكسون هم الذين يحملون رسالة «إسرائيل» التي تخلى عنها اليوم يهود اللحم والدم، وهم الذين أعطاهم الله العهد والوعد، وهم الذين ورثوا كل ما أعطاه الله تاريخيا ليهود اللحم والدم. لقد اختار الله يهود اللحم والدم موقتا، وبشروط أخلفوها، ولكنه اختار الأمة الأميركية (الأنغلوسكسون) مؤبدا، لأنها تستأهل الاختيار، ولأنه وهبها كل ما يلزمها من قوة وثروة لأن تكون «شعب الله» و«فوق كل الشعوب»، إلى الأبد.

|

منذ الفترة الاستعمارية الأولى كان أطفال القديسين يتعلمون أن مسيرة التاريخ التي ترعاها يد الله الإنكليزي ونعمته أعطتهم دورا خلاصيّا. وكانت هذه الافتراضات تقترن بإيمان قيامي مزدوج الهدف: تجميع يهود العالم في فلسطين للتعجيل بمجيء المسيح، وتدمير قوى الشيطان التي كانت تتمثل يومئذ بالعثمانيين والكاثوليك والهنود الكنعانيين. وبالطبع فقد وجد بعض السياسيين الانكليز في استعمار العالم الجديد فرصة لتحقيق ما عجزوا عن تحقيقه في وطنهم. وبذلك تأكد لهم أن خروجهم من جزيرتهم يضاهي الخروج الأسطوري للعبرانيين من أرض مصر، ولم يساورهم الشك في أخلاقية استعمارهم وحقهم في إبادة الهنود ومقارنة ذلك كله باجتياح العبرانيين لأرض كنعان وتأييد السماء لإبادة أهلها.

كل أدب المستعمرين الأوائل يؤكد على هذه القدرية التاريخية التي نالت ذروة إبداعها في موعظة جون ونثروب الذي أصبح أول حاكم لمستعمرة ماساشوستس والذي سماه كاتب سيرته الذاتية بنحميا الأميركي وكتب عنه كتيّبا بهذا العنوان تأسيا بنحميا الذي خرج بالعبرانيين من سبيهم في أرض بابل وعاد بهم إلى أورشليم فبنى معبدها من جديد. وكان ونثروب قد ألقى هذه الموعظة في الحجاج على متن السفينة الأسطورية أربيلا وأكد فيها على العهد الجديد بين الإسرائيليين الجدد وبين يهوه، وعلى الرسالة التي يحملونها إلى مجاهل أرض كنعان الجديدة: «إننا سنجد رب إسرائيل بيننا عندما سيتمكن العشرة منا من منازلة ألف من أعدائنا، وعندما سيعطينا مجده وأبهته، وعندما يتوجب علينا أن نجعل من [نيو إنكلند] مدينة على جبل city upon a hill [رمز أورشليم الذي يستخدم إلى الآن للدلالة على المعنى الإسرائيلي لأميركا. وقد سمعت بأذني آخر أربعة رؤساء أميركيين يستخدمون هذا الرمز في مناسبات مختلفة: ريغان، بوش الأب، كلينتون، بوش الإبن]».

في منتصف القرن السابع عشر، ساد الاعتقاد بأن الله عاتب على شعبه الجديد وأن هناك بوادر خصومة عبّر عنها ميخائيل ويغل وورث Michael Wiggle Worth أحد أكبر شعراء عصره في قصيدة ملحمية بعنوان «خصومة الله مع نيو إنكلند God's Controversy with New England»

ندب فيها فشل المستعمرين في أداء واجبهم الرسالي. وتبدأ الملحمة بمقدمة طويلة تصف شيطانية الهنود وظلاميتهم ووحشيتهم وكيف أن هؤلاء العماليق والكنعانيين الملعونين تنطحوا لمحاربة رب إسرائيل ثم انهزموا مذعورين أمام جنوده. وهناك عشرات المحاولات لتقليد هذه القصيدة الملحمية من قبل شعراء ثانويين، كلهم ردوا غضب الله إلى خيانة العهد معه ودعوا إلى تجديده كما فعل العبرانيون القدامى.

ومع انطلاقة ما يسمى بالصحوة الكبرى The Great Awakening في منتصف القرن الثامن عشر تجدد الأمل في أن الله لن يتخلى عن شعبه ولن يهجره، وأن الشمس ستطلع من أميركا لتضيىء العالم. وكان جوناثان إدواردس أعظم فلاسفة الاستعمار الأنكلوسكسوني في القرن الثامن عشر قد وضع الأسس الفكرية لهذه اليقظة التي ستكون بداية «التجديد الإلهي» لكل الإنسانية. وأكد إدواردس على المعنى الإسرائيلي لأميركا وضرورة أن تصبح أورشليمَ الأرض (مدينة على جبل city upon a hill) حتى لا تفقد روحها ومعناها. وقدم تفسيرا طوبولوجيا للتاريخ البشري حاول أن يفسر فيه لماذا ستقوم «مملكة الله» في أميركا ولماذا سينتشر نورها قريبا في أنحاء العالم.

وعلى الرغم من أن «الصحوة الكبرى» جددت فكرة المعنى الإسرائيلي لأميركا، وأكدت على أن أميركا هي أرض الميعاد فإن ولادة الجمهورية ـــ على غير المتوقع ـــ أعطت تصديقا جديدا لهذا الاعتقاد. «إن آلام ولادة الثورة التي أدت إلى الاستقلال أيقظت أبناء المستعمرات على رسالة جديدة في المجاهل». كان انتصار الثورة آية على مباركة الله للطموحات الأنكلوسكسونية. لقد تحولت إسرائيل الله إلى جمهورية، وصار القدر الاستعماري قدرا وطنيا (وكلمة «وطني» أو «قومي» في الولايات المتحدة تعني إجماع الجماعات العرقية والطبقات الاجتماعية المختلفة على ما يريده الزنابير«البيض، الأنكلوسكسون، البروتسانت»، وما تقتضيه مصلحة «ثروة الأمم». ليس هناك إجماع وطني أو قومي على قضية لا تخدم الزنابير أو تفيد ديناصورات وول ستريت).

في كتابه: الولايات الأميركية التي تضطلع بدور بني إسرائيل في المجاهل The American States Acting Over the Part of the Children of Israel in the Wilderness، يقدم نيكولاس ستريت Nicholas Street صورة عن لهفة أنكلوسكسون العصر إلى التوسع الاستعماري بعد النكسات التي أعاقتهم عن نشاطهم الأول. إنه يعيد إلى الأذهان ما كتبه ميخائيل ويغل وورث في معلقته «خصومة الله مع نيو إنكلند» حيث أكد بلهجة الوعاظ على أن ما لحق بالنشاط الإستعماري من فتور هو نتيجة حتمية للخطايا والآثام ولإخلاف الوعد مع يهوه. ونبه ستريت إلى أن ظلم فرعون لندن يجب أن لا يحجب العيون عن شرور إسرائيل الله الأميركية، فما لم يتواضع شعب الله لربه، ويتب إليه، ويحافظ على عهده فإنه لن يتحرر من القيد البريطاني ويعبر البحر الأحمر إلى الأرض الموعودة ويحقق استقلالها.

وكان وضع الدستور قد شجّع على تأصيل المعنى الإسرائيلي لأميركا كما كتب رئيس جامعة هارڤرد صموئيل لانغدونSamuel Langdon في رائعته «جمهورية الاسرائيليين: نبراس للولايات

الأميركية The Repulic of the Israelites, An Example to the American States » ، وهي في الأصل خطبة ألقاها في المحكمة العليا. إن قارئها لن يتردد لحظة في الشك في أنه يقرأ مقاطع من سفر الخروج أو التثنية، بل إنه فعلا يفتتح كلامه عن ولادة الدستور بهذا المقطع من سفر التثنية : «لقد علمتكم فرائض وأحكاما كما أمرني الرب إلهي لكي تعملوا بها في الأرض التي أنتم داخلون إليها لتتملكوها. فاحفظوا واعملوا، فتلك هي حكمتكم وفطنتكم في عيون الشعوب الذين سيسمعون عن هذه الفرائض ويقولون: ما أعظم هذا الشعب وما أحكمه وأفطنه! ...». والواقع أن كل الرائعة هي شرح واستطراد وتعليق وقياسات تمثيلية بين شريعة موسى والدستور الأميركي وبين الإسرائيليين والأمة الأميركية. فالدستور مناسبة للتأكيد على وجه الشبه بين ما نزل على موسى من «ألواح» وبين ما نزل على قلب واضعي الدستور. وهي مناسبة للتذكير بأن إسرائيل القديمة والجديدة أمة مختارة، باركها الله قديما بشريعة ليس لها مثيل وجعلها «فوق كل الشعوب» نبراسا للعالم عبر كل العصور، ثم أكرمها حديثا بدستور ليس له مثيل وجعلها «فوق كل الشعوب» مثالا يحتذى عبر كل العصور. فإذا تعلم الناس منهم (طريقتهم في الحضارة) رفعوا من شأنهم، وإذا استكبروا وأبوا جرّوا على أنفسهم الدمار والخراب (والأضرار الهامشية). هذا نرسيس الأعمى مرة ثانية يحدق في مياه النهر فتلتبس عليه إسرائيل التاريخية بإسرائيل الأميركية، وما جرى في كنعان الفلسطينية بما يجرى في كنعان الأميركية. وهاهو يدير أسطوانه الخروج والعبودية لفرعون مصر وفرعون لندن، ويتذكر بأن الأمتين المختارتين لم يكن لديهما جيش لحظة الخروج لكنهما بعد اجتياز البحر الأحمر والمحيط الأطلسي أعانهما رب الجنود على دخول كنعان وتملكها وتدمير أهلها. «هذا شعب... لا ينام حتى يأكل فريسة، ويشرب دم قتلى» (سفرالعدد ٢٣:٢٤). إن تأسيس مجلس الشيوخ أيضا ليس إلا استمرارا لما فعله موسى عندما اشتكى إلى يهوه أنه لا يطيق الحكم فأمره باختيار سبعين رجلا من الحكماء والرتباء. ولم يجد لانغدون حرجا من القول بأن حكومة موسى كانت «جمهورية» وقائمة على المبادىء الجمهورية وأن قبائل إسرائيل كانت تحكمها حكومات محلية لا تختلف عن الولايات الأميركية.

ولم يكن الأباء المؤسسون للدولة الأميركية مثل جفرسون، وآدامس، وفرانكلين، وپاين ـــ أصحاب الإتجاه العقلاني والمذهب الطبيعي ـــ بأقل حماسة للمعنى الإسرائيلي للأمة الأميركية من الحجاج والقديسين وصاموئيل لانغدون. ومعروف أن فرنكلين وجفرسون كليهما أصر على صورة «الخروج الإسرائيلي» من مصر إلى كنعان كمثل أعلى للنضال الأميركي من أجل الحرية. وفي الرابع من تموز/يوليو ١٧٧٦ (عيد الاستقلال) عهد الكونغرس لفرانكلين وجفرسون أن يضعا تصميما لخاتم الولايات المتحدة. أما فرانكلين فاختار رسما لموسى رافعا يده، والبحر الأحمر منفلق، وفرعون في عربته تبتلعه المياه مع شعار رائج في تلك الفترة: «التمرد على الطغاة طاعة لله». وأما جفرسون فاقترح رسما لبني إسرائيل في التيه يرشدهم السحاب في النهار وعمود النار في الليل. وكان الرئيس جفرسون من أبلغ من تحدث عن المعنى الإسرائيلي لأميركا.. بل إنه ختم خطابه التدشيني لفترة الرئاسة الثانية بتعبير يشبه الصورة التي اقترحها لخاتم

الجمهورية: «إنني بحاجة إلى فضل ذلك الذي هدى آباءنا في البحر كما هدى بنى إسرائيل وأخذ بيدهم من أرضهم الأم ليزرعهم في بلد يفيض بكل لوازم الحياة ورفاه العيش».

في القرن التاسع عشر صار المعنى الإسرائيلي للأمة الأميركية يتمحور حول التوسع باتجاه الغرب وبسط السيطرة على جيران كنعان «وراء النهر» الميسيسيبي: المؤابيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين والصيدونيين والمديانيين وبني إسماعيل الذين أسرعت اليهم العناية الإلهية فأنبتت في رؤوسهم الريش وسمتهم جميعا بالهنود وأعطت أرضهم وأرواحهم لشعب الله. كل هذه الشعوب الهندية وراء النهر كانت تضم بين جنباتها مهاجرين أو لاجئين من هنود كنعان الجديدة، وكان معظمها متحالفا مع البريطانيين ومطمئنا إلى وعودهم وصداقتهم، ولم يكن يدور بخلد فرد منهم أن سيوف شعب الله قاب قوسين أو أدنى من رقابهم.

لم يبدأ التوسع باتجاه الغرب إلا بعد أن اشترى الرئيس جفرسون أراضي لويزيانا من ناپليون عام ١٨٠٣. فهذا التملك ضاعف مساحة الأراضي التي يستعمرها الإنكليز، ووفّر الشروط الآمنة للملاحة في الميسيسيپي. وفتح الشهية لاجتياح الغرب الأقصى. وكانت سعة «المجاهل» الجديدة وغناها بالثروات قد عززت القناعة بمواكبة العناية الإلهية لتوسع شعب الله، وأن هذه البلاد ما خلقت إلا لكي يتملكها بنو إسرائيل الجدد. ومع تقدم المستوطنين بالبندقية والبلطة والمذابح، واقتضامهم الغرب ميلا بعد ميل، تضاعف الاعتقاد بالمعنى الإسرائيلي لأميركا وبالإختيار الإلهي للزنابير. وقد عبّر ريتشارد نيبر Helmut Richard Niebuhr عن ذلك في كتابه «مملكة الله في أميركا The Kingdom of God in America» بقوله: إن الفكرة القديمة عن شعب الله الأميركي قد أعطت دورها لفكرة الأمة الأميركية المختارة والمفضلة عند الله. ولطالما تناول أدب القرن التاسع عشر توسع أرض كنعان إلى ما وراء الميسيسيپي باعتباره خطوة لا بد منها لتصحيح مسار رحلة كولومبس إلى الهند الحقيقية المنتظرة منذ زمن طويل، وباعتباره أول قطف ثمار لبستان العالم Garden of the World. لقد صار على غرب الميسيسيپي أن يستعد لاستقبال «الأضرار الهامشية» للحضارة وعاداتها، عادات الأنكلوسكسون وثقافتهم أو ما صار يصطلح عليه بعد ذلك باسم «طريقة الحياة الأميركية».

وكانت عقيدة القدر المتجلي Manifest Destiny التي سادت منذ أربعينات القرن التاسع عشر قد أدت إلى بعض الجراحة التجميلية للمعنى الإسرائيلي لأميركا. فالاصطلاح كما يعرفه ألبرت وينبرغ Albert Weinberg في كتاب بعنوان «القدر المتجلي» يعبر عن الثقة المطلقة بالنفس وبالطموحات التي أقرها القدر نفسه بآيات واضحة جلية، بدءاً بآية السفينة التي حملت الحجاج إلى بليموث وانتهاء بالتوسع غرب الميسيسيپي الذي رعته العناية الإلهية. ومن أبرز مبررات هذه العقيدة ما يسمى بنظرية «القضاء والقدر الجغرافي»، أو الزعم بأن يد القضاء هي الذي ترسم الحدود الجغرافية للأمم (لا تعترف الولايات المتحدة، كإسرائيل، إلى الآن بحدود جغرافية لها، وليس في دستورها إشارة إلى ذلك). ومنذ أن أطلق جون أوسوليڤان هذا الاصطلاح في مقالة له بعنوان «التملك الحق» تحول «القدر المتجلي» إلى عقيدة سياسية مفادها أن هذا العالم كله

«مجاهل» وأن قدر أميركا (الأنكلوسكسونية) الذي لا ينازعها فيه أحد أن تتملك منه ما تشاء من أرض لأن ذلك حقها الطبيعي، ولأن إله الطبيعة والأمم هو الذي أورثها هذه الأرض.

وفي هذه العيادة القدرية أجريت الجراحة التجميلية للمعنى الإسرائيلي لأميركا وفكرة الإختيار والتفضيل الإلهي التي بدأت تزايد على عقدة الإختيار الإسرائيلي. فالسبب الأسمى لاختيار الله لإسرائيل هو سر غامض من أسرار يهوه (النص المقدس يقول إن الإختيار تم وفقا لمكيدة اسرائيل بأبيه الأعمى وليس سرا من الأسرار كما يعتقد سوليڤن)، أما الآن مع عقيدة القدر المتجلي فإن الله اختار شعبه الجديد لأسباب جلية واضحة، بسبب تفوقه العرقي وغناه وموقعه الجغرافي ومؤسساته الدستورية والخيرية...الخ. «لقد تم فك سر الإرادة الإلهية» كما لاحظ ألبرت وينبرغ، وشهدت العلوم الإنسانية ولادة «انثروبولوجيا قدرية» تولى الله فيها توظيف قضائه وقدره في شركة جورج واشنطن للقرصنة العقارية وسلخ الرؤوس.

اجتياح غرب الميسيسيپي وتصحيح مسار رحلة كولومبس إلى الهند الحقيقية هو محور قصيدة والت ويتمان «القومية»: معبر إلى الهندPassage to India التي أعطت عقيدة «القدر المتجلي» أعذب معانيها الشعرية. ومن المفارقات أن ويتمان لم «يعبر» الميسيسيپي في حياته ولم يشهد هذا الغرب الذي غناه في قصائد كثيرة من أبرزها «أيها الرواد Pioneer, O Pioneer» التي تغزل فيها بأبطال اجتياح الغرب الذين خلقوا مصيرا جديدا للعالم. في قصيدة «معبر إلى الهند» التي نشرها عام ١٨٧١ ومجّد فيها ثلاثة انجازات إنسانية ربطت «أوصال العالم» هي شق قناة السويس، وإنشاء «سكة حديد الهادي»، ومد «خط الإتصال الأطلسي» تحت الماء باح ويتمان بإيمانه بقدر أميركا المتجلي وراء البحار، وقال إن التاريخ البشري كشف عن هدفه الغامض بعد أن وصلت رحلة كولومبس إلى نهاية مطافها. ويرى الأميركيون أن هذه القصيدة تعبر عن ذروة الطموح إلى مدّ جسر إلى الشرق الساحر، وتفسر الإيمان الشائع بأن أميركا بدأت تمسك بخيوط التاريخ الإنساني.

بعد وضع اليد على الفيليپين وسعار التوسع وراء البحار كتب جوسيا سترونغ Josiah Strong أشهر كتبه الرائجه «بلادنا Our Country» وأشار فيه إلى الإرتباط العضوي بين القدر المتجلي وبين الأنكلوسكسون. وبيّن سترونغ أن تصميم الله لمستقبل الإنسانية يعتمد كليا على الأنكلوسكسون باعتبار أنهم هم الذين قدموا الفكرتين المتلازمتين: الحرية المدنية والمسيحية الروحية الصافية. ولأن الفرع الأميركي للعرق الأنكلوسكسوني هو الذي أعطى هاتين الفكرتين صورتهما الكاملة فقد صارت أميركا هي المؤهلة لأن تمسك بمصير الإنسانية. ولكي يحقق الله لأميركا هذه السيطرة على مصير الإنسانية فقد أوكل إليه سترونغ مهمة العمل على جبهتين: في الجبهة الأولى يغدق الله على شعبه الجديد، العرق الأنكلوسكسوني، كل مايحتاجه للإمساك بهذا المصير، ويهيىء الميسم الذي سيدمغ به [ظهور] شعوب الأرض، وفي الجبهة الثانية يسخّر اللهُ من يعد [ظهور] شعوب الأرض لتُدمغ بهذا الميسم ١٠٠. (طبعا إن فكرة العرق الأنكلوسكسوني كذبة لا يعترف بها علم الأعراق. وكل الذين أسسوا لها عرقيا كانوا يشيرون إلى ذلك الخليط

المهجن للجماعات البشرية التي تسكن الجزيرة البريطانية من الجرمان والسلت والڤايكنغز.. ثم عمموه ـــ زنبوريا ـــ على تلك الإخوة الضبابية للناطقين بالإنكليزية من البيض...فقط).

وكان دخول أميركا الحربين العالميتين هو أوسع معبر إلى قدر أميركا المتجلي وراء البحار لدمغ ظهور البشرية بدمغة الأنكلوسكسون الحضارية، أو ما صار يسمى في الاصطلاح الأميركي بنظام العالم الجديد. وكالعادة في كل حرب فإن الرئيس الأميركي (وكان يومها وودرو ولسون) خرج على مواطنيه ليعلن عن ظهور مجاهل جديدة ووحوش جدد هم «الهون الذين خلقوا الشيطان» وليقول إنه لم يورط أبناء الولايات المتحدة في الحرب إلا للدفاع عن الحضارة ضد الهمجية وللدفاع عن«طريقة الحياة الأميركية». وفي الحرب العالمية الثانية أيضا أعلن الرئيس روزفلت لمواطنيه أن أميركا تدخل الحرب من أجل إنقاذ العالم، ودفاعا عن الحضارة وعن طريقة حياتها.

خلال الحربين كان السياسيون ونجوم السينما والإذاعات والصحف و«عروض الفرجة» كلهم يمجدون الدور الأميركي «الخلاصي» ويركزون على الإختيار الإلهي ووحدة المصير الأنكلوسكسوني وارتهان مصير الإنسانية كلها لمصير العرق الأنكلو سكسوني المختار، كما عبّر عن ذلك رينهولد نيبور Reinhold Niebur في مقالته «المصير والمسؤولية الأنكلوسكسونية»١٠١ قبل قصف هيروشيما وناغازاكي بالقنابل النووية وتدشين عصر الإبادة من السماء.

|

بعد أربعة قرون من مواكبة «العناية الإلهية» لحركة التوسع الاستيطاني نحو الغرب أعلن فردريك تيرنر Frederick Jackson Turner أحد أبرز فلاسفة «الثغور» أن «الجبهة القارية» الداخلية انتهت ووضعت أوزارها، وبانتهائها ختمت أميركا حقبتها التأسيسية اللازمة للتوسع وراء المحيط ولبناء إمبراطوريتها الكونية. وعندما نشر كتابه «مشكلة الغرب The Problem of the West أكد على أن التوسع والحرب كانا أساس النماء الاقتصادي الأميركي، ولابد لاستمرار هذا النماء من استمرار التوسع وعدم إطفاء نار الحرب. ودعا تيرنر إلى شق قناة لهذا التوسع عبر المحيط والاستفتاح بضم الجزر والبلدان القريبة. إنها حتمية الولادة الأبدية للثغور التي تتقدم باستمرار، و حتمية الولادةالأبدية للحياة الأميركية على هذه الثغور والجبهات التي ستصل الغرب بالشرق لتكمل شمسُ الحضارة الأنكلوسكسونية دورتَها حول الأرض.

لقد نجا شعب الله الجديد من ظلم فرعون وخرج إلى كنعان الجديدة فقهر قديسوه مجاهلها. وظل الغرب يفر أمام زحوفهم ويتراجع حتى لم يبق أمامهم من غرب، وإلى أن صار عليهم أن يخترعوا لزحفهم غربا ولو في أول الشرق. تلك هي «جبهة القتال»؛ أبرز ثوابت التاريخ والنماء الأميركي كما رآها أحد أبرز مؤرخي الولايات المتحدة في القرن العشرين. إنها الآية التي ورث بها شعب الله أرض كنعان ، وإنها التجربة الحية والمستمرة لفكرة أميركا؛ «فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة». منها بنى المستعمرون لحم أكتافهم واقتصادهم القائم على «حق النهب» والفردية المتوحشة، وبها رفعوا صرح مدنهم على أنقاض المدن الهندية وسوروا حدائقهم بعظام الهنود. لقد كانت هذه «الجبهة» المتقدمة دائما الوجه السحري لأسطورة أميركا حيث كتب القضاء والقدر

للحضارة أن تنتصر على الهمجية، وللإنسانية على «الوحوش»، وللنور على الظلام، وللخير على الشر، ولله على الشيطان، وللتسامح على التعصب، وللحب على الكراهية، ولإسرائيل على كنعان.

صحيح أن كل الشعوب تُفرغ أعداءَها من إنسانيتهم لأسباب مختلفة وبأشكال مختلفة. لكن قديسي شعب الله الإنكليزي جرّدوا ضحاياهم من إنسانيتهم قبل أن يروهم، وكرهوهم وحكموا عليهم بالموت قبل أن يشرعوا سفنهم إليهم. إنهم لم يستطيعوا أن يروهم في مكانهم أو في زمانهم أوعلى حقيقتهم. لقد اخترعوهم من أساطيرهم وشحم غرائزهم ونحتوهم من مركب زواحفهم١٠٢ وتعصبهم المقدس، وراحوا يعبدون الله ويقتلون ضجرهم بتكسير هذه الدمى.

وكان المكان (كنعان) في ذلك الغرب لا يختلف عن هذه الصورة. إنه اختراع. وهو مثال في الذهن مستمد من شبكة معقدة من الجنون الديني ووظائف الأعضاء. فأرة تلتقمها الأفعى بلقمة واحدة. هنا في هذا الفضاء السحري لكل مكان جديد وثغر جديد خضعت أخلاق كراهية الكنعانيين لحالة استيلاد جديدة من الذاكرة ومن نظام الهذاء البارانويي ومن وحشية «ثروة الأمم»، ومن الغرور المدفون عميقا في طبيعة المقدس نفسه.. المقدس الذي لا يتعمد إلا بالدم: «هوذا شعب ... لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى». ولقد صارت هذه «الأخلاق الإبادية» بنفاقها وبسماتها الانكليزية المسمومة «عقيدة وأيديولوجيا، بل صارت النواة الصلبة للقومية الأميركية التي ماتزال تخصب الأدب والفن والسينما وصناعة الجريمة والموت وتعطي أوضح صورة لمفهوم الأميركي عن نفسه وعن العالم.

هذه الأخلاق الإبادية التي ضربت جذورها في عقدة الاختيار وكراهية الكنعانيين، ورافقت بناء أميركا لحظة لحظة وجبهة بعد جبهة، هي التي جعلت «الأميركيين يعتقدون اليوم كما كان أجدادهم المستعمرون الأوائل يعتقدون قبلهم بأن لهم الحق المطلق في أن يقتحموا أي غرب»١٠٣ في أي مكان من الأرض. إن ميتافيزيقا «اقتحام الغرب» التي نسفت نظام البوصلة وأعدت العصر الذهبي لنظرية الإنكليزي مالثوس جعلت الغرب الأميركي في كل الجهات وفي كل الأرحام. إنه «الغرب» اللانهائي، اللامكان، وإنه كل مكان. إنه فضاء الزنابير، الثقب الأسود الذي يمتص كل شيء، الأرض التالية، وراء الجبهة التالية، وراء الغرب التالي، وراء المجاهل التالية، وراء الإبادة الجماعية التالية. إن عالمنا كله يعيش اليوم تحت رحمة مافيا كولومبس الذي أوصى باستثمار ذهب أميركا في «تحرير أورشليم»، وإن الهنود الحمر الذين أبيدوا بالنيابة عنا، نحن الكنعانيين على الحقيقة١٠٤، ما يزالون يعيشون فينا١٠٥.

الحواشي

١- ظلت مؤسسة سميثسونيانSmithsonian الثقافية الرسمية لفترة طويلة تصر على الزعم بأن عدد سكان أميركا الشمالية عند وصول كولومبس لم يتجاوز المليون. ومع تزايد الاحتجاجات تبرعت المؤسسة بمليون إضافي وقفزت بالرقم إلى مليونين. ولم يكن الرقم الأول ولا الثاني يستند إلى دراسة علمية ، بل كانا أشبه بضربة النرد. ويعتقد فرانسيس جننغز Francis Jennings الرئيس السابق للجمعية الأميركية للدراسات العرقية والمدير السابق لمركز تاريخ الهنود الأميركيين ومؤلف كتاب «اجتياح أميركا The Invasion of America» أن تقديرات السميثسونيان العشوائية ومعظم ما يماثلها مبنية على افتراضات زائفة ذات طابع عنصري. ومع خمسينات القرن العشرين بدأت جامعة كاليفورنيا في بيركلي بإجراء أبحاث تعتمد على ما يمكن تسميته بعلم الآثار الزراعي Agricultural Archaeology خلصت منها إلى أن عدد سكان أميركا في زمن كولومبس كان يزيد على مئة مليون. وبتطبيق هذه التقنية على الشمال الأميركي توصل هنري دوبينز Henry F. Dobyns في كتابه «أرقامهم التي هزلت...Their Number Became Thinned: Native American Population Dynamics in Eastern North America» إلى أن العدد كان في حدود ١١٢ مليونا ، بينهم ٥ ,١٨ مليون في أراضي ما يسمى اليوم بالولايات المتحدة الأميركية.

٢- يصنف دوبينز في المصدر السابق أنواع الحروب الجرثومية الشاملة التي تعرض لها الهنود خلال القرون الأربعة الماضية والتي صرنا نملك معلومات عن ٩٣ وباء شاملا منها كالتالي: ٤١ جدري، ٤ طاعون، ١٧ حصبة، ١٠ انفلونزا، و٢٥ سل ودفتريا وتيفوس وكوليرا. وقد كان لكل من هذه الحروب الجرثومية آثار وبائية شاملة تجتاح مساحات شاسعة من الأراضي من فلوريدا في الجنوب الشرقي إلى أورغون في الشمال الغربي.

٣- تعترف مصادر التاريخ المنتصر بهذا العدد من الأمم والشعوب الهندية وإن كانت تقلل من عدد أفرادها ، غير أن الأبحاث التاريخية تقول إن هذا الرقم شديد التواضع وأن أمما هندية كثيرة غير هذه الأربعمائة المعترف بها قد محيت من ذاكرة البشر. ففي عام ١٨٢٨ مثلا سافر عالم الأحياء الفرنسي جان لوي برلانديه Jean Louis Berlandier عبر تكساس ولاحظ أن الـ ٥٢ أمة هندية التي تم التعرف عليها من قبل بعثة لاسال La Salle قبل حوالي ١٥٠ سنة أبيدت نهائيا ومحي ذكرها باستثناء أربع أمم فقط. طبعا ، لا نعرف كم أمة أبيدت قبل مدونات لاسال، فحين كان لاسال في لويزيانا عام ١٦٨٢ مثلا وضع أكثر من علامة استفهام حول الخرائط والحوليات التي تركتها بعثة دوسوتو De Soto ، ذلك لأنها تشير إلى وجود عدد كبير من الشعوب الهندية التي لم يجدها لاسال نفسه بعد أن تم تدميرها منذ زمن طويل. إنظر Jean Louis Berlandier في كتابه The Indians of Texas in ١٨٣٠، ص ٧٤.

٤- Steven T. KatZ في كتابه The Holocaust and Mass Death Before the Modern Ages.. ص٢٠.

٥- راجعJ. Leitch Wright في كتابه The Only Land They Knew، ص ٧٨.

٦- Feenie Ziner في سيرة حياة Squanto ص١٤٧.

٧- الرسالة منشورة في Letters from New England بتحريرEverett Emerson ، ص ١١٥-١١٦.

٨ - راجع Thomas Morton في New English Canaan ، ص ١٣٣. والجلجلة أو «الجلجثة» كلمة آرامية تعني الجمجمة، أو تل له شكل الجمجمة. وهو المكان الذي صلب فيه السيد المسيح.

٩- William Bradford في Of Plymouth Plantation، ص ٢٧٠-٢٧١.

١٠- Cotton Mather، في مجموعته الكبيرةMagnalia Christie Americana ، ص ٨٩. وهي من مصادر هذا البحث الأساسية.

١١- راجع عن خطف الأطفال James J. Rawls في Indians of California، ص ٩٦-٩٧، وعن تصريحات الحاكم بورنت والسياسة الرسمية تجاه الهنود Albert L. Hurtado في Indian Survival on the California Frontier. ص ١٣٤

١٢- النسب منشورة في دراسة عن ضحايا الشيروكي أثناء رحلة الدموع كتبها Russel Thornton في مجلة Ethnohistory، العدد ٣١، سنة ١٩٨٤. أما النسبة الخاصة بالشيروكي ففي كتاب للمؤلف نفسه بعنوان The Cherokees: A Population History، ص ٧٥.

١٣- James Mooney في The Historical Sketch of the Cherokee، ص ١٢٤.

١٤- بحسب تقديرات Ryan Johanson وS. H. Preston في مجلة Social Science History، العدد ٣، سنة ١٩٧٨.

١٥- راجع Karen Ordahl Kupperman في كتابها
Settling With the Indians: The Meeting of English and Indian Cultures in America. ص ١٧٩
ويؤكد ذلك أيضا James Truslow Adams في كتابه The March of Democracy، المجلد الأول، ص ١٢، وكذلك James Loewen في كتابه Lies my Teacher Told me، ص ٩٠.

١٦- Edmund Morgan في كتابه American Slavery-American Freedom: The Ordeal of Colonial Virginia. راجع الصفحات ٢٥-٤٣.

١٧- البيان منشور في لندن باسم Edward Waterhouse تحت عنوان Declaration of the State of the A Colony and Affairs in Virginia

١٨- أنظر كتاب مورغن American Slavery-American Freedom، ص ٩٩.

١٩- أنظر The History and Present State of Virginia لروبرت بيڤرلي Robert Beverley، ص ٢٣٢. وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة في عام ١٧٠٥، وأعادت طبعه جامعة كارولينا الشمالية، شاپل هيل، عام ١٩٤٧. وانظر في قصة زعيم البوهاتن أوپشنكانو كتاب James Axtel بعنوان After Columbus ففيه فصل كامل عن إمبراطورية پوهاتن.

٢٠- Edmund Morgan في كتابه American Slavery-American Freedom. راجع الصفحة ٢٣٣.

٢١- راجع Ziner، ص ١٤١، وRobert Loeb, Jr. في كتابه Meet the Real Pilgrims ص ٢٣ و ٨٧ ، و Jennings ص ٤٨-٥٢. ومعروف أن نيتشه في كتابه «المسيح الدجالThe Antichrist » يتحدث عن هذه القذارة بإسهاب. وهناك مقال طريف كتبه Jay Stuller في مجلة سميثسونيان (فبراير/شباط ١٩٩١) بعنوان Cleanless شرح فيه تاريخ هذه القذارة الأوروبية التي حاول سكوانتو تخليصهم منها بالاغتسال، وأشار فيه إلى أن الملكة إيزابيللا تفاخرت بأنها لم تغتسل إلا مرتين في حياتها، مرة عند ولادتها، ومرة عند زواجها.

٢٢- The Lord was as if were pleased to say unto us, The Land of Canaan will I give unto thee though but few and strangers in it» «. وكان يردد نبوءة توماس هوكر Thomas Hooker وهما ينطلقان لحرب البيكو : يجب أن يكونوا خبزنا فنأكل حتى التخمة». راجع Richrd Drinon في Facing West، ص

.٤٢

٢٣- Bulletin، مجلد ١٠، رقم ٦ ، ١٩٧٩.

٢٤- Richard Drinon في Facing West ، ص ٣٣١، وفي ص ٦٥، ونص تشبيه الهنود بالذئاب من رسالة كتبها واشنطن إلى جيمس دواين في ٧ أيلول /سبتمبر ١٧٨٣.

٢٥- المصدر السابق ٣٣١. ولابد هنا من ملاحظة أن التاريخ المنتصر يتفادى استخدام كلمة مدينة أو شعب أو أمة تماشيا مع سياسة «الأرض الخاوية»، ويفضل عند الاضطرار إلى استخدام كلمة قرية أو قبيلة.

٢٦ - المصدر السابق، راجع الفصل الخاص عن جفرسون بعنوان «طرد الهنود إلى جرود جفرسون» من ص ٩٩- ١١٦.

٢٧- Erna Gunther في كتابها

Indian Life on the North-West Coast of North America as Seen by the Early Explorers and Fur Traders During the Last Decade of the Eighteen Century. ص ٧٤

٢٨- راجع Robert O'Connell في Of Arms and Men: A History of War, Weapons and Aggression، ص ١١٧. والكتاب دراسة لعلاقة نظام القيم الأخلاقية والإقتصادية بنوع الأسلحة التي تستخدمها المجتمعات في حروبها، ويعتبر مدخلا مهما لتفسير الاستخدام الأنغلو سكسوني المفرط للأسلحة الجرثومية بشكل خاص ولأسلحة الدمار الشامل بشكل عام.

٢٩- حكم وليم برادفوردWilliam Bradford مستعمرة بليموث ثلاثين سنة، ويعتبر كتابه History of Plymouth Plantation من أبرز مصادر أسطورة الحجاج ورحلتهم الشهيرة في البحر وعهدهم مع الله وانتمائهم إلى بني إسرائيل.. .الخ. واعترافه هذا في ص ٢٧٠.

٣٠- Barry H. LopeZ في Of Wolves and Men، ص ١٧٠.

٣١-Francis Jennings في The Invasion of America ، ص ٢٠٧-٢٠٨. وقصة أولدام يمكن متابعتها بتفصيل أكبر في كتاب ريتشارد درينون Facing West.

٣٢- راجع الأخوين Stearn في The Effect of Smallpox on the Destiny of the Amerindian ، ص ٤٤- ٤٥ وللمزيد من المعلومات حول سلاح الجدري راجع Ola Elizabeth Winslow في

A Destroying Angel: The Conquest of Smallpox in Colonial Boston.

٣٣- هذه أكثر التقديرات تواضعا لعدد الضحايا. راجع Evan Connell في Son of The Morning Star، ص ١٦.

٣٤- صحيفة Daily Alta بتاريخ ٦ مارس/آذار ١٨٥٣، كما في كتاب Robert Heizer بعنوان The Destruction of the Californian Indians.، ص ٢٥١.

٣٥ المقالة منشورة بتاريخ ١٠ تموز/يوليو ١٨٦٠، وهي كذلك مذكورة في المصدر السابق عن تدمير هنود كاليفورنيا ص ٢٥٣-٢٥٥.

٣٦- راجع مجلة Akwesasne Notes، ربيع ١٩٧٧، مقالة Gayle Jarvis بعنوان The Theft of Life.

٣٧- أنظر مقالة Helen Timkin Greene في The American Journal of Public Health، عدد نيسان/ أبريل ١٩٨١.

٣٨- Claus Knorr في British Colonial Theories, ١٥٧٠-١٨٥٠، ص ٦٨-٨٠.

٣٩- راجع Howard Mumford Jones في كتابه

O Strange New World: American Culture—the Formative Years. ص ١٦٩

ولمعرفة المزيد عن اتهام الإنكليز للإيرلنديين وغيرهم بالوحشية راجع مقالة Nicholas P. Canny بعنوان The Ideology of English Colonization: From Irland to America في فصلية William and Mary، السلسلة الثالثة، العدد ٣٠، ١٩٧٣.

٤٠- Margaret T. Hodgen في Early Anthropology in the Sixteenth and the Seventeenth Centuries، ص ٤٠٩.

٤١- Thomas F. Gossett في Race: The History of an Idea in America، ص ٢٤٣. في ذروة الحماسة لعقيدة القدر المتجلي عارض كثير من الزنابير سياسة التوسع إلى الفيليپين. وعلى الرغم من عميق إيمانهم بحق أميركا في أن تحكم العالم فإنهم رفضوا ضم «أمة منحطة ذات بشرة داكنة» مثل الفيليپين خوفا من التلوث العنصري. وكان الجنرال جاكوب سميث في عام ١٩٠٢ قد قدّم مثالا على هذا التطهر العرقي حين اجتاح جزيرة سمار Samar الفيليپينية وأباد كل ذكر فيها فوق العاشرة. ويومها، عبّر تشارلز فرانسيس آدامس عن ذلك «التطهر العرقي» بكل صراحة عندما أشار إلى «الإبادة الأميركية للهنود الحمر كدرس يجب الاعتبار به وتذكره في مثل هذه المناسبات، لأن هذه الإبادة برغم قسوتها أنقذت العرق الأنكلوسكسوني من التهجين». راجع Christopher Lasch في The World of Nations: Reflection on American History, Politics and Culture، ص ٧٨. في هذه الكلمات القليلة التي قالها الديبلوماسي الأميركي (ابن الرئيس جون كوينسي آدامس) نرى شبحا مخيفا للمبررات العرقية للإبادات المقبلة، فبالنسبة لهولاء الذين أعمتهم عقدة الاختيار الإلهي والتفوق العرقي وظنوا أن «طريقتهم في الحياة» التي امتزج فيها بارود التفوق بوحشية النظام الرأسمالي يجب أن تكون بديلة عن الحياة نفسها فإن الإبادات المقبلة لعناصر أو أعراق كاملة من «المنحطين» يعتبر حلا ناجعا للخلاص من التلوث العرقي والتهجين». وويل لمن تلده أمه في المجاهل. ولأن المتوحشين هم المسؤولون عن إبادة المتحضرين لهم فقد كتب فرانسيس پاركمن Francis Parkman أشهر مؤرخ أميركي في عصره أن الهنود الذين وصفهم بأنهم «بشر وذئاب وشياطين في آن» قُدّر عليهم أن يتلاشوا قبل أن تتقدم موجات الحضارة الأنكلوسكسونية ... إن الهندي في الواقع هو المسؤول عن الدمار الذي لحق به لأنه لم يتعلم فن الحضارة، ولا بد له هو وغابته من الزوال. والأمر يستأهل». راجع كتاب پاركمن The Conspiracy of Pontiac and the Indian War After the Conquest of Canada، مجلد ١، ص ix و ٤٨. «والأمر يستأهل It's worth it» هي العبارة التي استخدمتها مادلين أولبرايت حين سئلت عن رأيها في مقتل مئات آلاف الأطفال جراء الحصار الهولوكستي الذي تفرضه الولايات المتحدة على أهلنا في العراق.

٤٢- The Aberdeen Saturday Pioneer، ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩١.

٤٣- Charles A. Eastman Ohiyesa في كتابه

From the Deep Woods to Civilization. ص ١١١-١١٣.

٤٤- Fourteenth Annual Report of the U. S. Bureau of Ethnology، الجزء الثاني، ص ٨٨٥

٤٥- The Aberdeen Saturday Pioneer، ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩١.

٤٦- John Underhill في Newes From America، ص ٤٠، و Arber and Bradley في Travels and Woks of John Smith، المجلد الأول ، ص cxiv.

٤٧- راجع هذه الشهادة عند Thomas Budd في كتابه Good Order Established in Pennsylvania and New Jersey in America. ص ٣٣.

٤٨- Ruth Benedict في كتابها Patterns of Cultures ، ص ٣٢.

٤٩- George B. Grinnell في American Anthropologist، العدد ١٢ (١٩١٠).

٥٠- Stanley Diamond في In Search of the Primitive: A Critique of Civilization، ص ١٥٦.

٥١- John Underhill في News From America، ص ٧.

٥٢- John Mason في
A Brief History of the Pequot War. ص ٩

٥٣- Richard Slotkin and James K. Folsom في So Dreadful a Judgment: Puritan Responses to King Philip's War, ١٦٧٦-١٦٧٧.، ص ٣٨١.

٥٤ - The Invasion of America، ص ٢٢٧.

٥٥- راجع درينون في Facing West، ص ٤٥١.

٥٦- Edgar Cahn في Our Brother's Keeper: The Indian in White America، ص ١٧٦.

٥٧- Lawrence Stone في The Family, Sex and Marriage in England, ١٥٠٠-١٨٠٠، ص ٤٨٧.

٥٨- Edward Lazarus في Black Hills, White Justice the Sioux Nation Versus the United States, ، ص ٢٩.

٥٩- The Invasion of America، ص ١٦٠.

٦٠- راجعClifford Shipton في Sibley's Harvard Graduates، مجلد٦ ص ٤٠٧ و ١٧٧:٧.

٦١- راجع James Axtel في مقالته عن السلخ في كتابهThe European and the Indian: Essays in the Ethnohistory of Colonial North America، ص ٢٢٨.

٦٢- Peter S. Scmaltz في The Ojibwa of Southern Ontario، راجع ص ٩٩-١٠١.

٦٣- هناك كثير من اللوحات التاريخية التي تخلد صورة «وتزل» في مشاهد بطولية مختلفة. وهناك مقاطعة County في «وست ڤرجينيا باسمه، وكذلك هناك طريق عابرة للولايات باسمه. وماتزال كهوفه ومواقع بطولاته محجًا للأميركيين. لوتزل الآن أكثر من عشرة مواقع احتفالية على الإنترنت وهناك، لمن أراد الاستفاضة في سيرته، عشرات الكتب التمجيدية، منها: كتاب Clarence Brent Alman بعنوان: Lewis Wetzel, Indian Fighter: The Life and Times of Frontier Hero. و كتاب Cicil B. Hartley بعنوان: Lewis Wetzel, The Virginia Ranger.

٦٤-

"still reeking with the blood of those unhappy victims [as being] in rapture of…".

راجع اليوميات في

العدد ٩ ، ١٨٨٦، ص ٥٠١-٥٠٢.Michigan Pioneer and Historical Collection

٦٥- راجع هذه المآثر الإلهامية عند Ian Paden في The Fighting Elite: U.S. Rangers، ص ١٦-٢٥.

٦٦ - لمزيد من هذه المذابح التي كانت سلطات كاليفورنيا تشرف عليها رسميا أو تتعاقد مع شركات خاصة بخصوصها راجع Lynwood Carranco and Eastle Beard في Genocide and Vendetta: The Round Valley Wars of Northern California.

٦٧- راجعJohn Sugden في Tecumseh's Last Stand، ص ١٨٠.

٦٨- David E. Stannard في The Conquest of the New World, American Holocaust، ص ١٢١.

٦٩-David Svalsi في Sand Creek and the Rhetoric of Extermination: A Case Study in Indian-White Relations، ص ٢٩١. ومعظم الشهادات والمعلومات عن مذبحة ساند كريك مستمدة من هذا الكتاب ومن كتاب Stan Hoig بعنوان The Sand Creek Massacre، ومن تقرير الكونغرس الثامن والثلاثين، الدورة الثانية لعام ١٨٦٥: Report on the Conduct of the War. يقول جون تالاند في كتابه عن Hitler، ص ٧٠٢: إن البيوريتان (الزنابير) استعاروا كل مبررات العبرانيين اللاهوتية لإبادة الكنعانيين واجتياح بلادهم. ولعل من سخرية القدر أن الفوهرر كان يبدي إعجابا بنجاعة الإبادة الجماعية للهنود الحمر ويعتبرها من التجارب الرائدة التي يحتذيها في خططه وبرامجه.

٧٠- المصدر السابق

٧١- المصدر السابق

٧٢- المصدر السابق

٧٣- المصدر السابق

٧٤- المصدر السابق

٧٥-Svaldi ، ص ٢٩٨.

٧٦- Thomas G. Dyer في كتابه عن روزڤلت Theodore Roosevelt and the Idea of Race، أنظر النص الكامل لإشادة الرئيس روزڤلت بمذبحة ساند كريك في ص ٢٩٨-٢٩٩. وعن رأيه في الأعراق المنحطة وضرورة تصفيتها. انظر ص ٧٨-٨٦ و ١٥٩-١٦٤.

٧٧- أنظر Stan Hoigفي ملحق كتابه The Sand Creek Massacre.

٧٨- John W. Dewer في War Without Mercy, Race and Power in the Pacific War، انظر الصفحات ١٨٠ و٣٣٥.

٧٩- المصدر السابق ، ص ٦٤-٦٥.

٨٠- Ronald T. Takaki في Iron Cages: Race and Culture in 19th-Century America. ص ٩٦.

٨١- Drinnon، ص ٤٤٨.

٨٢ - المصدر السابق ٣٦٩و ٤٤٩.

٨٣- أنظر H. Frazier في Uncloaking the CIA، ص ٩٧. وللإطلاع على تفاصيل هذه العملية وعدد ضحاياها من مصادر مستقلة أنصح بقراءة الكتب الخمسة التالية التي اعتمدتها هنا:

١ - Michael J. Walsh, Eric Tobias and Greg Walkerفي Seal!: From Vietnam's Phoenix Program to Central America's Drug Wars: Twenty-six Years with a Special Operations Warrior

٢- Douglas Valentine في The Phoenix Program

٣ -John L. Cook في The Advisor: The Phoenix Program in Vietnam

٤ - Dale Andrade في Ashes to Ashes: The Phoenix Program and the Vietnam War

٥ - Stuart A. Herrington في Stalking the Vietcong: Inside Operation Phoenix, a Personal Account

٨٤- هناك مزيد من التفاصيل عن هذا الإنقاذ العنصري للبيض وفضيحة التخلي عن «الأصدقاء» و«الحلفاء» وكل ما ليس بأبيض في كتاب Frank Shepp بعنوان Decent Interval, An Insider's Account of Saigon's Indecent End. راجع الصفحات١٣٢ و ٢٨٩-٢٩١.

٨٥- Facing West ص٤٤٥.

٨٦ - The Fire This Time: U.S. War Crimes in the Gulf، وفيه تفصيل واف لهذه الجرائم التي توجتها الولايات المتحدة وشركاؤها الأباشي بقتل حوالي مليوني عراقي جوعا ومرضا بعد التدمير المتعمد لكل أسباب الحياة ومقومات البقاء.

٨٧- راجع زاوية Christopher Hitchens في The Nation، ١٣ شباط فبراير ١٩٨٩.

٨٨- راجع النيويورك تايمز (٢٨ آذار/مارس ١٩٩١). وتعتبر حرب كاناي (٢١٦ق.م) التي شنها هانيبال وحلفاؤه الأفارقة والغال وغيرهم على الرومان في جنوب إيطاليا من أبرز الرموز العسكرية لحروب الإفناء. إن مكان المعركة التي يسميه الطليان Campo di sangue (حقل الدم) هو التعبير الحقيقي عن طبيعة هذه الحرب الأميركية على العراق مباشرة، وعلى الأمة العربية وقضية فلسطين بشكل غير مباشر.

٨٩- Allan W. Eckert في The Dark and Bloody River، ص ٤٤٠.

٩٠-Richard Drinon، ص ٣٣١.

٩١- Eckert، ص ٤٤١.

٩٢- لمزيد من المعلومات حول كمائن الإتفاقيات، راجع Georgiana C. Nammack في
Fraud, politics, and the Dispossession of the Indians; the Iroquois Land Frontier in the Colonial Period

٩٣- Dee Alexander Brown في Bury My Heart at Wounded Knee ص، ٦٠.

٩٤- هناك مشكلة اصطلاحية مع تسمية كل الأمم والشعوب الأميركية بالهنود. فالاصطلاح منذ يومه الأول كان نتيجة الظن الكاذب بأن كولومبس وصل إلى الهند، ثم إن جزافية هذا الاصطلاح صهرت الاختلافات الثقافية لأكثر من أربعمائة أمة وشعب بدائي ومتطور في مصهر هذا الإسم الظني. إن هذا لا يختلف عن تسمية كل الشعوب الأوروبية باسم «الصينيين» مثلا، أو تسمية كل الأمم التي تعيش في آسيا باسم «القايكنغز». لقد وضعت عقلية الإبادة أول معجم أورولي دارج في التاريخ البشري حين سلبت هذه الأمم المختلفة اللغات والعادات والثقافات والديانات خصائصها، ودمغتها -دمغ المواشي- بخاتم الهند. إن عقلنا البشري اليوم يقف عاجزا أمام أكبر كذبة اصطلاحية عنصرية في تاريخ الإنسان. لقد فرضها التاريخ المنتصر مسلمة لايمكن للعقل تخطيها أو تجاوزها دون أن يجد صعوبة في الفهم والتواصل. أليس هذا ما كان يعنيه هتلر بقوله «إن حظ الكذبة في التصديق يزداد طردا مع ازدياد حجم هذه الكذبة»؟ إن ميثاق الإبادة لعام ١٩٤٨ يقول فيما يقول: «التسبب

في إزالة ثقافة من الوجود هو عمل من أعمال الإبادة The causing of any culture to cease to exist is an act of genocide. ، وماجرى في أميركا لم يكن إبادة لثقافة واحدة بل لأكثر من أربعمائة ثقافة مختلفة المستوى. إن خطر سابقة هذا الإبادة الثقافيه أنها أصبحت مثالا يمكن احتذاؤه في كل المناطق الخاضعة أو المرشحة للغزو والإجتياح الحضاري.

٩٥- من رسالة كتبها مفوض الشؤون الهندية شارلز بيرك Charls Burk إلى السناتور الجمهوري وليم وليمسون William Williamson في ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٢١.

٩٦- الشاهد من Richard Schaltter في Private Property: The History of an Idea ص ٨٨.

٩٧- A lande that promises more than the Land of promisse: In steed of mylke we fynde pearl. & golde Inn steede of honye / . من رسالة كتبها سير وولتر كوپ إلى لورد ساليزبوري يبشره فيها بسعادة الدين والدنيا. راجع Philip L. Barbour في Jamestown Voyages Under the First Charter, ١٦٠٦- ١٦٠٩. مجلد ١، ص ١٠٨. وفي الرسالة إشارات عديدة إلى الأوبئة التي نشرها الإنكليز في هذه المنطقة.

٩٨- حاولت بيان جذور هذه الصهيونية الأميركية في «تلمود العم سام The Talmud According to Uncle Sam»، جسور ٩/ ١٠، وفي «الجلاد المقدس The Holy Executioner»، جسور ٨/٧» وفي «فكرة أميركا»، الكرمل ٥٦/٥٥، ولا مبرر لتكرار ذلك هنا. لكنني الآن سأتناول تطور هذا المعنى الإسرائيلي لأميركا في أبرز محطاته التاريخية الأساسية من خلال عرض خاطف لزبدة مصادر هذه المحطات منذ المرحلة الإستعمارية الأولى حتى الآن، وسأقتصر للفترة الاستعمارية حتى الثورة على:

- Thomas Morton في New English Canaan، وهي من المصادر الأساسية لهذا البحث.
- Cotton Matherفي Magnalia Christi Americana
- Jonathan Edwards في The Latter-Day Glory Is Probably to Begin in America

ولفترة الثورة والدستور:

- Nicholas Street في The American States Acting Over the Part of the Children of Israel in the Wilderness and Thereby Impeding Their Entrance into Canaan's Rest
- Samuel Langdon في The Republic of the Israelites, An Example to the American States

ولفترة التوسع نحو الغرب

- Albert Beveridge في The Star of Empire
- Lyman Beecher في A plea for the West
- Reinhold Niebuhr في Anglo-Saxon Destiny and Responsibility
- وقصيدة والت ويتمان Passage to India

ولفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية

- Richard Drinon في Facing West المذكور أعلاه. والكتاب من المصادر الأساسية لهذا البحث
- William Fulbright.J في The Arrogance of Power.

٩٩- راجع مقالة Robert N. Bellah عن الدين المدني في أميركا Civil Religion in America في Daedolus،

شتاء ١٩٦٧.

١٠٠-الشاهد من Richard Harries في Reinhold Niebuhr and the Issues of Our Time.. ومقالته نشرت أصلا في Christianity and Crisis، ٤ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٤٣.

١٠١- الشاهد من كتاب Ernest Lee Tuveson بعنوان Redeemer Nation: The Idea of America's Millennial Role، انظر الصفحات ١٦٤-١٦٨.

١٠٢- مركب الزواحف Reptilian Complex منطقة في الدماغ «تعود [تطوريًا] إلى عصر سيادة الديناصورات والزواحف العمياء على الأرض»، اكتشفها پول مكلين Paul Maclean الرئيس الأسبق لمختبر تطور الدماغ والسلوك الإنساني في المؤسسة الوطنية الأميركية للصحة العقلية، وحاول أن يفسر من خلال رسوباتها الزواحفية سلوك هذا «الوحش النائم فينا».

١٠٣- Facing West، انظر ص ٤٦٠-٤٦٧.

١٠٤- مايزال الزنابير يسمون هنود أميركا بالعرب للمبالغة في التحقير. ويروي ولتر كاواموتو Walter Kawamoto من جامعة ولاية أوريغن Oregon State University والمسؤول عن الأقلية العرقية في المجلس الوطني للعلاقات العائلية National Council on Family Relations أن اسم «عرب أميركا» يطلق على الهنود الأميركيين في دروس العلاقات العرقية وفي أدبيات عدد من المنظمات الوطنية الأميركية. كذلك يطلق عليهم إسم «المسلمين الأميركيين» كما في حالة الدراسة العرقية لأسرة Harried McAdoo. (راجع: http://bioco2.uthscsa.edu/.aises/gst/mhx/chot/msg01235.html). وتسمية الهنود الحمر بالعرب في النهاية ليست جديدة، ففي دراسة عما يسمى بالهنود الخفاء أو اللامرئيين Invisible Indians تتحدث العالمة الأنثروپولوجية Louise Heite وزوجها إدوارد عن الهنود الذين كان المستعمرون الأوروبيون يسمونهم باسم «المور»، لا سيما أولئك الذين نجوا من الإبادة وتم استيعابهم في المجتمع الأوروبي الاستعماري، أو الذين نجوا من المذابح على طول الشاطىء الشرقي وعاشوا خارج «المنعزلات الهندية Reservations» أو خارج التجمعات التي تعترف وزارة الداخلية الأميركية بهنديتها. فكل هندي نجا من الإبادة ولم يعش في «المنعزلات» أنكرت الولايات المتحدة عليه هنديته وصارت تطلق عليه اسم «مور= عربي» أو مبغّل Mulato (كلمة مستمدة من تهجين البغال mules) أو زنجي. وقوانين ولاية ڤرجينيا ماتزال إلى الآن تصف طفل الهندي الذي لا يعيش في المنعزلات بأنه مبغّل. والغريب أن بعض علماء البيض ممن أثروا على حساب إبادة شعوبهم الهندية تمتعوا بصفة البيض فيما ظل أباؤهم أو أخوتهم أو ابناء عمومتهم تحت صنف الزنوج أو المبغلين (راجع Africans and Native Americans: The Language of Race and the Evolution of...,) لجاك فوربس Jack D. Forbes, University of Illinois Press، ص ٦٧ و١٣١، وكذلك راجع http://home.dmv.com/~eheite/indians/invisible.html). كان تعبير المور (العربي/المسلم) لدى بعض مثقفي وكتاب أواخر القرون الوسطى يعني كل من ليس أبيض. فالإنسانية التي رسمها عصر ألبرت دورر Albrecht Dürer هي إما أبيض أوروبي مسيحي أو زنجي عبد عربي/ مسلم moore=mohr. ويقول فوربس: إن كلمة more الفرنسية وmaurusالإسبانية و moro الثالنسية اشتقت جميعا من الكلمة اللاتينية morus وتعني الزنجي.

١٠٥- ليس هناك تضليل أخطر من وصف «مايجرى» بأنه صراع مع الغرب، أو صراع حضارات. أو حرب على

الإسلام. إن هذه الإصطلاحات الفضفاضة لاتبدد جهودنا وطاقاتنا وحسب بل إنها تصرف أنظارنا عن مصدر الخطر الحقيقي الذي يهدد بقاءنا الثقافي والجسدي وكل مصادر هذا البقاء وعناصره. أليس غريبا أن الذين يروجون لهذه الصراعات الوهمية هم مؤسسات «الاستعمار الداخلي»؛ أنظمة المستعمرات الأميركية المشغولة الآن بتحسين صورتنا كأننا نحتل كاليفورنيا ونسيطر على آبار وعائدات نفط تكساس، ونضرب حصارا وحشيا على فلوريدا نقتل فيه خمسة آلاف طفل من أطفالها شهريا...الخ. كل هذه الجهود الحميدة لتحسين صورة الضحية في عين جلادها تتم ضمن حملة على مستوى الأرض لترويض وتنعيج هذا «الوحش» الذي يرفض الاحتلال والهيمنة. فكما أن هناك بقرا وغنما وخنازير وكلابا ودواجن يجب أن يكون هناك حيوان أليف آخر إسمه «الحيوان العربي الأليف» الذي يعطي ضباع الله طائعا وبجبرية قدرية صوفه وحليبَه وسخاله... وحياتَه إذا لزمت طقوس التضحية.

إنه لمن الغريب حقا الإعتقاد بأن هناك صراعا جغرافيا مع الغرب وعلاقاتنا مع كل الشعوب والدول الغربية باستثناء الولايات المتحدة وقفتها البريطانية، بدءا من دول بحر الشمال كالدانمارك والسويد والنروج وانتهاء بدول المتوسط كإسبانيا وإيطاليا واليونان- لا تختلف كثيرا عن علاقاتنا من دول آسيا وأفريقيا. أي صراع تواجهنا به فنلندا وألمانيا ولوكسمبورغ وسويسرا؟

كذلك فإن القول بأن هناك صراعا مع «الحضارة الغربية» هو أكثر تضليلا ولؤما، فليس للبيت الأبيض ولا للبنتاغون خلاف مع ابن رشد ولا مع الفارابي ولا مع إخوان الصفا ولا مع المعتزلة ولا مع الأشعرية ولا مع المتنبي ولا مع جابر بن حيان ولا مع الخوارزمي ولا مع أي منظومة أخلاقية قيمية، أو مدرسة فكرية أو إبداعية أو لاهوتية فقهية أو علم من الأعلام الذين صنعوا حضارتنا. كما إنه ليس لأحد في العالم العربي خلاف مع كوبرنيكوس أو نيوتن أو كانط أو ديكارت أو هيدغر أو هولدرلن أو غوته أو بيتهوفن أو باخ أو دافنشي أو مايكل أنجلو أو حتى مع القديس توما الأكويني أو غيرهم ممن رسموا الملامح الأساسية لما يسمى اليوم بالحضارة الغربية. إن جورج بوش لايمثل هذه الحضارة الغربية.

على مستوى ما يسمى بالحرب على الإسلام فإن رجل الدولة في واشنطن لا يميز لاهوتيا بين الإسلام وبين أي دين آخر، ولا يميز سياسيا بين الإسلام وبين أي تيار سياسي آخر. إن رجل الدولة على المستوى اللاهوتي لا يمانع المسلم أن يرفع مئذنته فوق قبة الكابتول (إلى جانب تمثال المرأة الهندية الحمراء)، وهو مستعد لأن يصوم ويصلي ويطلق لحيته ويهنىء المسلمين بالأعياد، ويصدر لهم طوابع تذكارية، ويسمعهم أعذب الكلام عن الإسلام وعظمته وإنسانيته، ويدافع عن حقهم في حرية ممارسة الشعائر (غير الضارة) وتعمير المساجد بالرخام والذهب والدفاع عن قضايا الإسلام في بورما والبوسنة والماو ماو وحيثما تقتضي مصلحة المافيا. وعلى المستوى السياسي فإن رجل الدولة هو الذي يعمل على خلق اتجاهات سياسية وأصوليات ذات صفة إسلامية تعمل لصالح سياسته. وهذا هو ما تقوم به مؤسسات الأنظمة العربية التي تعمل على طريقة «مكتب الشؤون الهندية». أما الحركات الإسلامية المقاومة فإن أميركا لا تتصدى لها لأنها إسلامية بل تتصدى لها كما تتصدى لأي تيار يقاوم أطماعها مهما كان دينه أو عقيدته أو مذهبه السياسي.